

شارلمان فى مصادر تاريخ إسبانيا (من القرن التاسع حتى الثانى عشر الميلادى)

د. عبد المحسن طه رمضان*

ملخص

يندر أن تخلو كتابات الدول المعاصرة لشارلمان (٧٦٨ - ٨١٤م) من ذكر له، كلّ بحسب طبيعة علاقته به، ودا أو عدا، أو حتى إعجاباً؛ فيما عدا الكتابات الإسبانية التى لا يرد فيها أدنى إشارة عنه قبل القرن الثانى عشر؛ أى بعد تجاهله على مدى ما يقارب ثلاثة قرون؛ مع ما كان له من نشاطات على الأرض الإسبانية، وعلاقات مع ملوكها كان لها تأثيرها فى صياغة مستقبل السياسة الإسبانية، فيما يتصل بموقفها من مسلمى الأندلس على الأقل. ومن المستبعد أن يكون اختفاء شارلمان طوال هذه المدة، ثم ظهوره على هذا النحو المفاجئ ظاهرة عفوية، بقدر ما هى انعكاس لظروف وملابسات تثير الفضول بما يستوجب التوقف عندها لتفسيرها؛ وهو تفسير يمكن ربطه بما كان بين مملكة شارلمان الفرنجية ومملكة إسبانيا من قواسم، قاربت أو باعدت بينهما فى الرؤى والتوجهات؛ ثم ربطه بمدى استجابة هذه الرؤى لتطورات أوضاع المملكتين وتقلباتهما، لاسيما على الصعيدين السياسى والدينى؛ وأخيراً استيضاح طبيعة الكتابات الإسبانية ودوافع تدوينها، وهوية مؤلفيها وانتماءاتهم السياسية والدينية أيضاً. ومن هذا المنظور انتهت الدراسة إلى أن اختفاء شارلمان فى الكتابات الإسبانية حتى القرن الحادى عشر لم يكن إلا طمساً لدوره على الأرض الإسبانية، إرضاء لغرور الإسبان فى الاستئثار بشرف قيادة حركة مناهضة مسلمى الأندلس واسترداد البلاد منهم؛ بوصفها قضية إسبانية بحتة ومنوطة بملوكها وحدهم؛ بدون مشاركة خارجية من شارلمان أو غيره، بخاصة أنه قد ولى وخارت إمبراطوريته من بعده. أما ظهوره فى كتابات القرن الثانى عشر فلم يكن بهدف التأريخ له أو رد اعتباره، وإنما تجريده مما روجت له الكتابات والملاحم الفرنجية وقتذاك من بطولات على الأرض الإسبانية، بوصفه رائداً لحركة الاسترداد ومنقذاً للكنيسة الإسبانية.

* مدرس التاريخ الإسلامى بأداب عين شمس.

لكن وإن نجح بعض إسبان هذا القرن في انتزاع ثوب البطولة الذي ألبسته له الروايات الفرنجية المقروءة؛ فقد ساهم بعضهم الآخر في رواج الملاحم المروية، كأنشودة رولان، بحيث ظلت تواصل انتشارها وغلبتها على المستوى الشعبي؛ فانتقلت مهمة التصدي لها لكتاب القرن الثالث عشر.

Charlemagne in the Historical Spanish Sources

(from the 9th to the 12th century A D.)

Abstract

The writings of the states contemporary to Charlemagne rarely forget to mention him, either in friendly, fiendly way or even sheer admiration. The only exception is the spanish writings which completely ignored him till the twelfth century, in spite of his activities on the spanish soil, his relations with their Kings, and the effects he had on forming the future of spanish policy, concerning at least its relations with the Muslims of Spain. His omission was not fortuitous, but was the result of such circumstances needed to be explained according to the kind of links between the Frankish and Spanish Kingdoms, especially in the political and religious aspects; in addition to the nature of spanish writings, their authers and their political or religious affiliations, scopes and intents. The conclusion reached is that the ignorance of Charlemagne was intentional, so that the history of the reconquist of spanish land remains purely spanish affair, without any foreign assistance or interference, to insure the spanish role while the Frankish Kingdom was obliterating and its former glory was declining. His appearance in the spanish writings of the twelfth century was not to evoke his heroism, but on the contrary to denigrate his role which the frankish epics (i.e. Chanson de Roland) and writings (i.e. Vita Karoli) showed him as a pioneer of the "Reconquista." In spite of the success of the spanish writers - in the twelfth century-in removing the aurea of his heroism, and courage appeared in the frankish writings; they, however, failed in removing the huge success of the epics, which had a tremendous impact on the popular spanish thought.

تكفى شهرة شارلمان Charlemagne (٧٦٨ - ٨١٤م) عن الإفاضة فى التعريف به، كونه أحد مشاهير حكام بواكير العصور الوسطى، وأعظم شخصيات الأسرة الكارولنجية التى أسهمت بنصيب كبير فى شحن التحركات الصليبية لمواجهة الزحف الإسلامى على أوربا؛ فقد ورث عن أبيه بين Pepin وجده شارل Charles كل مواصفات الزعامة السياسية والحماسة المتدفقة فى الدفاع عن الوجود وعن العقيدة؛ إضافة إلى علاقات ودية مع البابوية التى حفظت مواقفهم فى إنقاذ الكاثوليكية من كل من الوثنية والإسلام، فأنعمت على جده بلقب Martel؛ أى المطرقة، تعبيراً عن نجاحه فى صد الزحف الإسلامى عام ٧٣٢ م، وإجباره على أن يأخذ منحى تراجعياً عن غالة^(١). ثم رفعت ابنه بين إلى عرش مملكة الفرنجة عام ٧٥١ م^(٢)، حينما أفقد المسلمين آخر قواعدهم هناك؛ وأصبح من العسير عليهم اتخاذ أية مبادرة جدية للتوغل فيها ثانية، بحيث انقضى المد الإسلامى المنظم وتحول إلى نظام تقليدى عديم الجدوى. أما ما أنعمت به البابوية على شارلمان، بتتويجه إمبراطوراً رومانياً مع مطلع عام ٨٠٠ م، فكان سابقة تاريخية فريدة لم يظفر بها ملك جرمانى قبله.

وما من شك فى أن الذى أملى على البابوية مثل هذا الإجراء غير المسبوق هو تدهور علاقتها بالبيزنطيين، الذين تمانوا وقتذاك فى الابتعاد عن الخط البابوى؛ وحاجتها إلى من يتولى حمايتها والدفاع عنها ضد ما يحيط بها من أخطار؛ لاسيما من اللومبارديين فى إيطاليا ومن المسلمين فى الأندلس. وفى المقابل فإن الموقع الذى اكتسبه شارلمان بهذا الإجراء - واستثمره فى تحقيق طموحاته السياسية للسيطرة على أوربا وبعث الامبراطورية الرومانية من جديد - قد اقترن بالتزامات كان عليه أن يؤديها للبابوية. ومن هنا كانت حملاته المتتابة على اللومبارديين فى إيطاليا^(٣) مهد الامبراطورية، وعلى من عداهم فى غير إيطاليا من سكسون وسلاف وبنماركيين^(٤)؛ إضافة إلى حملاته ضد مسلمى الأندلس، الذين ارتبط اسمه فى تاريخهم بأولى مبادراته الهجومية على أراضيهم عام ٧٧٨ م؛ ونتيجة لهذه النشاطات الحربية المكثفة تمكن من تثبيت أركان دولته وتوسيع حدودها، حتى صارت امبراطورية فرضت هيبتها على الغرب الأوروبى بعامه^(٥)؛ وتحول شارلمان إلى رجل أوربا الأكثر قوة، الذى له من متانة نظامه الداخلى وسمعته الخارجية ما أهله لأن يكون موضع إعجاب من عاصره من كافة حكام الشرق والغرب، لاسيما العباسيين والبيزنطيين والاسكتلنديين

وملوك أستوريس الإسبان^(٦)، وحتى أمراء الأندلس المسلمين^(٧)، الذين تنافس جميعهم فى كسب صداقته وتوطيد علاقته به.

وبديهى أن تنعكس شهرة شارلمان على كتابات مؤرخى تلك الدول، بحيث يندر أن تخلو إحداها من الإشارة إليه أو إلى نشاطاته وعلاقاته، كلٌ بحسب طبيعة العلاقة معه وداً أو عداءً أو حتى إعجاباً وتقديراً؛ وذلك باستثناء كتابات مؤرخى الممالك الإسبانية المتعاقبة حتى القرن الثانى عشر الميلادى، التى اتخذت اتجاهها مغايراً تباينت فيه مواقفها منه حتى تعقدت الإشكالية واتخذت بعدين يبدوان متناقضين. يظهر بعدها الأول فى الكتابات المعاصرة لشارلمان واللاحقة له حتى القرن الحادى عشر الميلادى؛ أى خلال عصر مملكتى أستوريس (٧٣٩ - ٩١٠ م) ووريثتها ليون (٩١٠ - ١٠٣٧ م)، وهى مدة تقارب ثلاثة قرون اختفى خلالها شارلمان ومعه فرنجه فى هذه الكتابات اختفاءً مطلقاً، بحيث لم تورد أى منها أدنى إشارة إليه، بل لم يرد اسمه فيها ولو مرة؛ على نحو يوحى وكأن مؤلفيها لم يسمعوا به بالمرة - رغم شهرته التى طبقت العالم وقتذاك من غربه إلى شرقه - وكانوا هم أقرب إليه من غيرهم، وتلك ظاهرة تلفت الانتباه وتستوجب التوقف عندها لسير غورها وكشف غوامضها ودوافعها.

أما البعد الثانى من الإشكالية فتنطرحه كتابات مملكتى ليون وقشتالة، بقية القرن الحادى عشر حتى عشية اندماجهما النهائى عام ١٢٣٠ م^(٨)، حيث يظهر فيها شارلمان للمرة الأولى بعد طول غياب لكن ليس بقصد التأريخ له؛ وإنما قدمته بعضها فى صورة الغازى المتوثب بالإسبان الطامع فى أراضيهم، فشهرت به ونددت بما تدعيه رواياته الفرنجية من بطولات له على الأرض الإسبانية؛ بحيث فاضت هذه الكتابات بروح عدائية نحوه، تماثل الروح التى أبدتها نحو المسلمين بعامة ومسلمى الأندلس بخاصة. فى حين أبدى بعضها الآخر ميلاً واضحاً إليه إلى درجة أنها صورته بطلاً نصيراً للإسبان وحامياً للكاتوليكية الإسبانية. وكان من نتيجة هذا التناقض أن تعقدت تركيبة صورة شارلمان وتعددت أبعادها فى المصادر الإسبانية.

* * *

على هذا النحو تباينت مواقف الكتابات الإسبانية من شارلمان؛ وهو تباين لا يمكن أن يكون عفويًا كما يبدو للوهلة الأولى، بقدر ما هو انعكاس لظروف وملابسات

ربما يستحيل تفسيرها وفك تعقيداتها استنادا إلى أية احتمالات منفردة أو حتى مجتمعة، بدون ربطها بما كان بين مملكة الفرنجة والممالك الإسبانية المتعاقبة من قواسم من ناحية، ومدى استجابة هذه القواسم لتطورات أوضاع كل من الفرنجة والإسبان السياسية والدينية خلال تلك الحقبة وتقلباتها من ناحية أخرى؛ ثم -أخيرا - استيضاح طبيعة كتابات كل مرحلة، ودوافع تدوينها وهوية مؤلفيها وانتماءاتهم السياسية والدينية أيضا.

ولا جدال فى أن القواسم بين ملوك كل من الفرنجة والإسبان كانت وطيدة، فملوك إسبانيا انحدروا كالفرنجة من أصول جرمانية^(٩)، كما ربطتهم وحدة العقيدة على مذهبها الكاثوليكي، وعلاقات ودية مع البابوية قاربت بينهم، إضافة إلى تجاور أراضيهم، على نحو يجعل إحداهما ظهيرا استراتيجيا للآخرى فى وجود عدو مشترك متآخم لكليهما؛ فمثل هذه الروابط كانت كفيلة - ولا شك - بأن تقارب إن لم توحّد بينهم فى الرؤى والتوجهات، على نحو يفضى فى النهاية إلى تتسيق المواقف؛ فيما يتصل على الأقل بأمن أراضيهم ضد أخطار عدوهم الطارئ، الذى كانت حروبهم معه حرب وجود طويلة لا حرب حدود موقوتة؛ وهو ما يفرض عليهم تواصلًا فى التعاون والتسيق ضده إلى أبعد مدى. لكن إذا كانت السنوات العشر الأولى من حكم شارلمان (٧٦٨ - ٧٨٨ م)، التى عاصره فيها ثلاثة من ملوك أشتوريس (أوريليو Aurelio وسيلو Silo وموريغاتو Mauregato) لم تشهد أننى تعاون بينه وبينهم، فمرد ذلك بالدرجة الأولى إلى أنهم لم يكونوا جميعا قد فرغوا بعد من إعادة ترتيب أوضاعهم الداخلية، أو وضع أسس السياسة المستقبلية ضد عدوهم المشترك موضع التنفيذ؛ فانصرف ملوك أشتوريس لهمومهم الداخلية انصرافا جعلهم يرضخون لمهادنة الأمير الأندلسى ويقبلون تدخله فى شئونهم الداخلية، بحيث يشاع عن أحدهم وهو (موريغاتو) أنه يدين له بوصوله إلى العرش؛ ولم يكن مثل هذا الملك فى وضع يساعده على أن ينفذ يده من الأمير الأندلسى، الذى كان نجمه وقتذاك فى صعود على نحو ينبئ عن قوة متنامية، يعجز موريغاتو عن ردها أوحثى التصدى لها بموارد دولته المادية والبشرية المحدودة.

وعلى الجانب الآخر كان شارلمان لايزال يلهث وراء أعدائه من شرق دولته إلى غربها فشمالها، وبدا الطريق أمامه طويلا وشاقا حتى يفرض سلطانه عليهم؛

لاسيما مع السكسون الذين امتدت حروبه معهم ثلاثة وثلاثين عاما تكاد تكون متصلة، وبلغت من الضراوة وكثرة النفقات واستنفاد الجهود ما لم تبلغه غيرها من حروبه^(١٠)، حتى صاروا عقبة حقيقية على طريق مشروعه الامبراطوري إما أن يزيلها أولا وإما تنهياً ظروف ملائمة أيهما أقرب، كي يفكر في فتح جبهة جديدة على حدوده الجنوبية مع الأندلس؛ ولذلك فلم يقم بأى نشاط حربي إيجابى ضد الأندلس إلا حينما لاحت الفرصة المناسبة بوصول ابن العربى - حاكم مدينة سرقسطة المخلوع - إليه فى عام ٧٧٧ م، يعرض عليه القيام بحملة عسكرية إلى شمالى الأندلس، ويتعهد بتقديم كافة أنواع الدعم والمساعدة، وفتح أبواب مدينة سرقسطة أمامه^(١١)، فوافق على عرضه فوراً ليس استجابة لرغباته وإنما لأنه وجد أن مثل هذه الضمانات كفيلة بنصر سهل فى ضربة سريعة على الجبهة الأندلسية، يعود بعدها إلى السكسون ليكون له معهم شأن آخر.

ولذلك لم يتردد شارلمان فى سحب قواته من الجبهة السكسونية، بعدما أمن حدوده معهم بحاميات تعزيزية فى الأماكن الاستراتيجية، واستجمع ما استطاع من عتاد وقوات، وقادها بنفسه فى ربيع عام ٧٧٨ م مخترقا جبال البرتات فى طريقه إلى مدينة سرقسطة قاعدة الشمال الأندلسي، وفى ظنه أنها ستبدر إلى فتح أبوابها أمامه حسبما تعهد ابن العربى. على أن سلسلة المفاجآت بدأت تكرر حلقاتها تباعاً منذ اقترابه من أسوار المدينة؛ إذ غلقت أبوابها وصممت على مقاومته؛ ولم يكذب فبق من هذا التطور غير المتوقع حتى صدمته مفاجأة أخرى بما ورد إليه من معلومات عن معاودة تمرد السكسون، فى ظل فراغ عسكري أحدثه غيابه بالأكثرية من جيوشه. ولما كانت المعركة ضد السكسون أوجب عنده من الأندلس التى انقلبت فيها الحسابات ونشابت الأوراق، فقد قرر الانسحاب وهو لا يحمل معه إلا الفضل فى أولى مبادراته ضد الأندلس؛ ملقياً بالمسؤولية على عاتق ابن العربى، فصب غضبه وهو فى طريق عودته على مدينة بمبلونة قاعدة بلاد البشكنس (نبارة) فدمرها تدميراً، ثم جاوزها قاصداً جبال البرتات، وأثناء عبوره لها بجيشه المتناقل البطيء صعقته المفاجأة الثالثة القاصمة، حيث كان البشكنس قد دبروا كميناً استهدف مؤخرة جيشه بما فيها من غنائم، فأبادوها عن بكرة أبيها ونهبوا غنائمها^(١٢).

ومن المؤكد انتفاء أدنى ارتباط لأشتوريس بهذه الحملة وتلك الكارثة التى أصابت كبرياء شارلمان العسكرى، وأضررت بمشاريعه الامبراطورية

إلى حين، بحيث اضطر إلى مواعدة الأمير الأندلسي^(١٣) ليتفرغ لهما لهما السكسونية الملحة؛ بدون أن تشهد الساحة تقارباً فرنجياً أشتورياً إلا بعد ذلك بنحو سبع سنوات وبالتحديد في عام ٧٨٥ م، على إثر ما فجره إلباندو Elipando أسقف مدينة طليطلة الأندلسية من أزمة دينية خطيرة، حينما أنكر ألوهية السيد المسيح ونادى بأنه ليس إلا ابن الله بالتبني^(١٤)؛ وسرعان ما انتشرت أفكاره في كل من الأندلس وأشتوريس وغالة مهددة أهم أصول المذهب الكاثوليكي؛ إذ اشتد الجدل والخلاف بين المؤيدين والمعارضين^(١٥) بصورة أزعجت البابوية؛ التي سارع شارلمان بتوجيهها إلى عقد المجمع في حضور ممثلين^(١٦) لبحث سبل مناهضة هذه الهرطقة ووأدها قبل استفحالها؛ كما أوفد أساقفته إلى نواحي غالة، وبعضهم إلى أشتوريس مثل الأسقف جوناس Jonas^(١٧) أسقف أورليانز وزميله ثيودولفو Theodulfo^(١٨) ليؤازروا إخوانهم في التصدي لمروجي هذه الهرطقة.

حقيقة، تخلو المصادر الإسبانية والفرنجية من أدنى إشارة يمكن أن يفهم منها أن ملك أشتوريس وقتذاك (برمودة Vermudo ٧٨٨ - ٧٩١ م) قد احتج أو تبرم من نشاط أساقفة شارلمان داخل دولته؛ على أن المتوقع منه - بحكم تربيته الدينية وتبحره في الدراسات اللاهوتية وغيرته على الكاثوليكية^(١٩) - أن يكون قد بارك هذا النشاط إن لم يكن قد نسق خطة العمل مع شارلمان لوأد هذه الهرطقة؛ لاسيما وأن أشتوريس كانت ترنو ببصرها وقتذاك إلى مثل هذا التنسيق لتجدد توتر علاقتها بالأندلس، منذ اعتلاء برمودة العرش في أعقاب انقضاء الصلح معها ب وفاة الأمير عبد الرحمن ومجيء ابنه هشام، الذي أشعلها حرباً ضروساً على أشتوريس أذاق فيها برمودة هزيمتين ساحقتين متلازمتين في عام ٧٩١ م^(٢٠)، أجبرته على أن يتنازل عن العرش طواعية - ولأول مرة في تاريخ أشتوريس - لألفونسو الثاني Alfonso II^(٢١) (٧٩١ - ٨٤٢ م)، الذي ظل يعاني هو الآخر على مدى السنوات الست الأولى من حكمه من موجة الضغط الأندلسي المتتالية؛ وهي موجة لم تقتصر رحاها على أطراف مملكته وإنما امتدت لتتال عاصمته مرتين في عامين متتاليين ٧٩٤ - ٧٩٥ م نهبت فيهما ودمرت^(٢٢)، وإن استمد جيرانه البشكنس والفرنجة لمداغمة هذا التصعيد الحربي المكثف^(٢٣)، فقد أيقن بأهمية التحالف مع شارلمان بوصفه القوة الأوربية المؤثرة. ولذلك تبادل معه مراسلات توجت في نهاية عام ٧٩٧ م بوصول وفده إلى مقر شارلمان في مدينة بادربون، ومعه هدية هي "خيمة عربية عجيبة الصنعة"^(٢٤)،

غنمها ألفونسو من المسلمين في حروبه السابقة معهم. ومع أن سيرة لويس تنفرد من بين الروايات الفرنجية بحصر هدف هذا الوفد في "ترسيخ أواصر الصداقة والمودة بين الملكين" ^(٢٥) الفرنجي والأشتوري، فإن الدلائل تشير إلى أن مهمته تعدت حدود المودة إلى إقرار خطة عمل مشتركة ضد الأندلس في شكل تحالف، وصفه إينهارد بأنه "كان تحالفا وثيقا للغاية" ^(٢٦)؛ بحيث إنه ما كاد الوفد الأشتوري يعود إلى بلاده مع أوائل عام ٧٩٨ م، حتى شهدت الأراضي الأندلسية في ربيع العام نفسه هجمات حربية متزامنة لكل من الفرنجة وأشتوريس كل من ناحيته؛ فأغار ألفونسو على أراضي الثغر الأدنى (إقليم ماردة) في غارة طويلة بعيدة المدى وصل بها إلى مدينة لشبونة فخرّبها ونهبها، ثم عاد إلى بلاده ليزف إلى شارلمان خبر انتصاره بسفارة تحمل هدية أخرى مكونة هذه المرة من سبعة أسرى من فرسان المسلمين بكامل عدتهم وجيادهم دليلا أكيدا على هذا الانتصار ^(٢٧).

وفي الوقت الذي اكتفى فيه ألفونسو بهذه الحملة التي كانت أقرب إلى الغارة منها إلى الفتح؛ كانت قوات شارلمان تواصل حملاتها التخريبية المتتابة على الجانب الآخر من الأراضي الأندلسية، على طول الأودية الجنوبية لجبال البربات، من أراضي بمبلونة (نابارة) غربا حتى مدينة برشلونة على ساحل البحر المتوسط شرقا، وهي المدينة التي اتخذها شارلمان بعد الاستيلاء عليها عام ٨٠١ م قاعدة لإمارة فرنجية داخل الأراضي الإسبانية، ولذا عرفت بالثغر الإسباني، La Marca Hispanica؛ وقد ظلت تنطلق منها الغارات الفرنجية على ما يجاورها من بلدان أندلسية بدون أن تتوقف إلا في عام ٨١٢ م بعقد صلح سعى إليه الأمير الأندلسي مع شارلمان، لكنه لم يطل إلى ما بعد وفاة شارلمان عام ٨١٤ م ^(٢٨)، لتعاني الأندلس ضغط الهجمات الفرنجية من جديد.

* * *

وعلى هذا النحو رسمت الروايات الفرنجية ومثيلاتها الإسلامية تطور العلاقات الفرنجية الأشتورية على عهد شارلمان، وانعكاساتها على موقفهما من الأندلس، لكن ما يثير الانتباه أن تكون إسبانيا طرفا في تشكيل هذه العلاقات وتختفى أخبارها كلية - وهي على هذه الدرجة من الأهمية - من مصادرها المعاصرة لشارلمان واللاحقة له حتى القرن الحادي عشر (٧٣٩ - ١٠٣٧ م).

وتتصدر المصادر الإسبانية المتوافرة عن هذه الحقبة في خمس مدونات تشكل المجموعة الأولى من مصادر تاريخ إسبانيا العصور الوسطى؛ وهى مدونات: ألفونسو الثالث La Cronica de Alfonso III^(٢٩)، وسباستيان Chronicon Sebastiani^(٣٠)، والبلدة Chronicon Albeldense^(٣١)، وبروفتيكا La Cronica Profetica^(٣٢)، وأخيراً مدونة سامبيرو أسقف أستورقة Chronicon Sampiri Asturicensis Episcopi^(٣٣). وليس من قبيل المبالغة القول بأنه يصعب استجلاء أسرار اختفاء أى من نشاطات شارلمان وعلاقاته بألفونسو الثانى فى هذه المصادر على نحو طمس دوره التاريخى، على الأقل فيما أسهم به وقتذاك من نصيب وافر فى صياغة تاريخ أوربا بعامة وإسبانيا بصفة خاصة وتشكيله، بدون استقصاء طبيعة هذه المصادر، وانتماءات مؤلفيها، وظروف تدوينها ويشمل ذلك ما أحيطت به هذه الظروف من محاذير أسهمت فى مجموعها فى التأثير فى رؤية مؤلفيها وفى رسم مراميهم مسبقاً.

وأول ما يلاحظ على هذه المدونات أنها جميعاً تمثل وجهة النظر الرسمية، فأولاًها اختطها آخر ملوك أستوريس وهو ألفونسو الثالث (٨٦٦ - ٩١٠ م)، ولذا نسبت إليه، لكنه حينما أدرك أن ألفاظها وأسلوبها أقرب إلى العامية؛ وتحتاج إلى تنقيح وضبط، عهد بكتابتها إلى أسقفه سباستيان بهذه المهمة^(٣٤)؛ فلما أنجزها ظل نصه المنقح محتفظاً بتطابقه مع النص الأصيلى تبويماً وترتيباً ومعالجة للأحداث؛ فيما عدا ما اقتضاه التنقيح من تبديل لألفاظ أو تعديل لأسلوب؛ بدون إخلال بالمعنى أو بالاتجاه الذى رسمه الملك فى نصه. أما كاتب المدونة الثالثة وإن كان مجهول الاسم، فما أورده فيها عن نفسه من معلومات وما استخدمه من عبارات دينية، تؤكد أنه أحد كبار رجال الدين المقيمين فى العاصمة الأشتورية، وأنه كتب مدونته فيها خلال عام ٨٨٣م بالتحديد^(٣٥)؛ أى فى عهد الملك ألفونسو الثالث نفسه، الذى جاء إطارؤه له وامتداحه لورعه وتقواه بما يلتفت النظر^(٣٦) ليدل على أنه أحد خاصته؛ ومن ثم لم تخرج مدونته عن التعبير الصادق لوجهة النظر الرسمية دون الواقعية. ونفس هذا الاتجاه تبادت فى التعبير عنه المدونة الرابعة بصورة أوضح، وهى وإن كتبها راهب مستعرب مقيم فى الأندلس خارج سلطان أشتوريس ومجهول الاسم أيضاً وفى عام ٨٨٣ م نفسه^(٣٧)، أى فى عهد ألفونسو الثالث؛ فإن ولاءه الأعمى له ينضح على مدار مدونته، وحسبنا فى ذلك أنه تنبأ باقتراب أجل السيادة الإسلامية فى الأندلس، على أيدي ألفونسو هذا ليستعيد سلطان

أسلافه القوط السياسى والدينى عليها، ويتوج سيدا لكل إسبانيا^(٣٨) مسيحية وإسلامية بطبيعة الحال. ثم جاءت المدونة الأخيرة من هذه المجموعة متوجة لهذا الاتجاه، فكانت بها الأسقف سامبيرو Sampoiro أحد أساقفة مملكة ليون، وقت أن كان يشغل وظيفة كاتب البلاط الملكى Notario فيما بين عامى ٩٨٢ و ١٠١٩م؛ ثم تولى فى العام الأخير أسقفية مدينة أستورقة Astorga - أى موظفا رسميا أيضا - حتى قبيل وفاته بعام واحد؛ أى فى عام ١٠٤١م^(٣٩).

وهكذا كانت كل مدونات هذه المجموعة معبرة عن الاتجاه الرسمى، بحيث أولت اهتمامها بالدرجة الأولى إلى التركيز على مآثر الملوك الإسبان وشمائهم، بدون الاهتمام برصد حركة الحياة فى أى من جوانبها، فيما عدا أنباء حركات التمرد أو الفتن الداخلية، التى أوردتها على هيئة الأنباء أو البيانات الرسمية، وصاغتها بأسلوب جاف مقتضب وبما لا يسئ إلى الملوك أو يؤثر فى سمعتهم، ولو على حساب الحقيقة التاريخية فى كثير من الأحيان؛ بحيث لا يمكن أن توصف هذه المدونات إلا بأنها أشبه بسجلات الأسرة الحاكمة ومآثر ملوكها.

ومن ناحية أخرى، فهذه المدونات تنبئ بأن مهمة التدوين التاريخى الرسمية كانت منوطة برجال الدين وحدهم خلال تلك الحقبة المبكرة من تاريخ إسبانيا المسيحية؛ وهو تقليد استمر على مدار عصورها الوسطى بأكمله، بحكم كونهم الفئة المثقفة القادرة على الكتابة بلغة سليمة؛ لكنهم كانوا فى المقابل من المغالين فى تعصبهم الدينى وولائهم الأعمى لمملكتهم ورمزها الجالس على العرش. ومن الطبيعى أن تنعكس هذه الرؤية على ما دونوه، فطغت عليها الأمور الدينية البحتة إضافة إلى قضية الصراع المصيرى مع مسلمى الأندلس، وهى قضية أضفوا عليها هى الأخرى مسوحا دينية واضحة؛ بحيث تركز معظم ما دونوه على مظاهر رعاية ملوكهم ماديا ومعنويا للكنيسة ورجالها ومؤسساتها، ومآثرهم التعميرية، دينية كانت أم مدنية وحتى دفاعية، وما ارتبط بذلك من نشاطات حربية فى مدافعة المسلمين ومجاهدتهم بوصف ذلك معيارا لمدى ورع ملوكهم وتقواهم. وبالتالي فلم تكن موضوعيتهم فيما دونوه مطلقة وإنما شابتها مبالغات فى أمور متعددة؛ كانتصارات ملوكهم على المسلمين أو حتى على المناوئين لهم فى الداخل؛ فى حين أغفلوا أمورا أخرى رغم أهميتها، وعلى رأسها دور الفرنجة بعامة وشارلمان بخاصة فى مناهضة المسلمين داخل الأراضى الإسبانية، بهدف أن يظل الدور الريادى فيها للإسبان وحدهم دون مشاركة فرنجية.

ومن الملاحظ من ناحية ثالثة أن مدونات هذه المجموعة - فيما عدا الأخيرة منها - قد دونت خلال عصر ألفونسو الثالث آخر ملوك أستوريس، وهو النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى (٨٦٦ - ٩١٠ م)، أى بعد وفاة شارلمان بما يزيد على نصف قرن، وكانت امبراطوريته قد خارت نتيجة لتقسيمها المتوالى بين أبنائه فأحفاده، فضلا عن همومهم الداخلية والخارجية المتتابة، حتى صارت هذه الامبراطورية فى ذمة التاريخ قبل انتهاء القرن ذاته ^(٤١)؛ واستتبع ذلك أن نفى النغر الإسباني -الذى أقامه شارلمان داخل الأراضى الإسبانية - يده من الفرنجة كلية، وبدأ يذوب فى الجسد الإسباني ^(٤٢)، وهو ما ترتب عليه انحسار المطامع الفرنجية عن إسبانيا لتقف عند السفوح الشمالية لجبال البرتات.

وأنذاك كانت الأندلس هى الأخرى تتردى نحو منحدر خطير من التمزق السياسى والتدهور الاقتصادى، حتى غدت مسرحا ملتهبا لاضطرابات وحركات انفصالية عنيفة متواصلة مزقت أوصالها، فحولتها إلى دويلات متناثرة استغدت طاقات الأمراء ومواردهم، وأضحت البلاد برمتها منهكة؛ فتأثرت سياستها نحو مملكة أستوريس الإسبانية بالسلب، حتى أضحت عقيمة عديمة الجدوى وصار جهادها فى حكم المتوقف ^(٤٣)، ونشرت المأساة أجنحتها السوداء على الأندلس المتداعية، وتراقصت أشباح نهايتها منذرة بشر مستطير وبأن زوال الحكم الإسلامى فيها بات على بعد بضع خطوات؛ وهى حالة عبر عنها أحد شهود العيان وقتذاك -وهو صاحب مدونة بروفيتكا ^(٤٤) - حينما توقع زوال السيادة الإسلامية عن الأندلس فى العام نفسه الذى كان يكتب فيه مدونته (٨٨٣ م) أو فى العام الذى يليه على أكثر تقدير؛ إذ قرر أنه ليس مقدراً لهذه السيادة أن تطول لأكثر من مائة وسبعين عاماً.

وعلى النقيض من هذا التدهور الفرنجى والأندلسى كانت مملكة أستوريس - ممثلة إسبانيا المسيحية آنذاك -ترتقى درجات التقدم والقوة بخطى سريعة أرست بها قواعد مؤسساتها، ودفعت بعجلة التنمية الاقتصادية والعمرانية دفعا أنعش اقتصادها الذى انعكس إيجاباً على كافة مؤسساتها المدنية والدينية وحتى العسكرية، بحيث دبّت القوة فى أوصالها بعد ضعف، وتخطت مرحلة الدفاع التقليدى إلى اتخاذ مبادرات هجومية جديّة على الأندلس نقلت بها مسرح العمليات العسكرية إليها، فأنهكت ما تبقى من قوى المسلمين وأعجزتهم عن النيل الحاسم منها، أو الحد من طموحاتها التوسعية المتتابة على حسابهم، فصار لها اليد الطولى عليهم.

وليس القصد هنا تتبع تفاصيل نهضة أستوريس وتفوقها آنذاك، بقدر تأكيد أنها شهدت نهضة حقيقية شاملة بلغت ذروتها وقت أفول نجم الفرنجة وتدهور أوضاع الأندلس، خلال النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى؛ أى خلال عهد آخر ملوكها ألفونسو الثالث، الذى دونت فى عهده المدونات السابق الإشارة إليها. ويكفى تدليلا على ذلك أن تمكنت أستوريس وللمرة الأولى من إعادة تعمير الحوض الشمالى لنهر دويرة على امتداد حدودها الجنوبية مع الأندلس، وتوطينه وتحصينه وإضافته إلى سيادتها الفعلية، بعدما ظل خاليا مهجورا على مدى قرن كامل سبق، بسبب ضعفها وعجزها عن توفير ما تطلبه توطينه وإعادة إعمارها من إمكانيات مادية وبشرية.

وبامتداد سلطان مملكة أستوريس على تلك المساحة الشاسعة، وتقدم حدودها جنوبا على حساب الأندلس حتى ضفاف نهر دويرة^(٤٤)، تعاضم بهذه الخطوة غير المسبوقة ملك ألفونسو الثالث واتسعت دولته^(٤٥) اتساعا بلغت به ضعف حجم مساحتها؛ وهوما كان له أثره الفعال فى دعم قوتها دعما تجاوزت به مرحلة الخطر على نفسها، ولم تعد فى حاجة إلى عون خارجى فرنجى أو غير فرنجى ضد مسلمى الأندلس. زد على ذلك أن سطرت أستوريس بهذه الخطوة أيضاً أولى مراحل تقلص النفوذ الإسلامى الملموس فى شبه جزيرة إيبيريا، وهو تقلص واصلت الممالك اللاحقة لها استكمال مراحلها وتصفيته فيما عرف بحركة الاسترداد La Reconquista؛ وبمعنى آخر كانت أستوريس النافذة التى انطلق منها تيار هذه الحركة التى أخذت تزداد سطوعا فى عهد ما خلفها من ممالك، ووضعت بذلك أسس السياسة المستقبلية مع المسلمين ما بقوا فى البلاد؛ وأصبح ألفونسو الثالث الرجل الأقوى - بلا منازع - على مستوى شبه الجزيرة بشطريها الإسلامى والمسيحى.

فى ظل هذا التشامخ الأشتورى كتب الملك ألفونسو الثالث مدونته التى نقحها أسفقه سباستيان، وقصرها على التاريخ لأجداد أسلافه القوط حتى نهاية عهد أبيه فى عام ٨٦٦ م؛ وهى أجداد ربطها فى كثير من جوانبها بقضية صراعهم مع مسلمى الأندلس ومناهضتهم؛ وكانت فى رأيه قضية إسبانية بحتة ومنوطة بملوكها القوط وحدهم؛ ومن هنا حرص - فى مدونته - على تأكيد طابعها الإشباني، واستبعاد أية مشاركة خارجية من شارلمان أو غيره؛ لاسيما وأنه كان يعى أن ما قام به شارلمان من نشاطات على الأرض الإشبانية ضد المسلمين وما أقامه من

علاقات مع أسلافه من ملوك أشتوريس، لم تكن مناصرة للإسبان أو إنقاذاً لمسيحياتهم، بقدر ما كانت ستاراً يخفى وراءه مطامعه في أراضيهم الإسبانية على طريق استكمال مشروعه الإمبراطوري، إشباعاً لشهوته الجامحة في السيطرة والنفوذ والتفرد. ومن هنا تعتمد ألفونسو الثالث - والمؤرخون الإسبان المعاصرون له واللاحقون حتى القرن الحادى عشر - تجاهل شارلمان ومعه فرنجته تجاهلاً مطلقاً، بحيث خلت كتاباتهم جميعاً من الإشارة إليه أو حتى ذكر اسمه ولو مصادفة، محاولة منهم في ترسيخ مفهوم إسبانية حركة مناهضة المسلمين. بل وصل الأمر بأحدهم (وهو مؤلف مدونة بروفيتكا) أن توقع زوال السيادة الإسلامية في الأندلس على أيدي الفونسو الثالث نفسه، ليستعيد سلطان أسلافه القوط السياسى والدينى على كل أقاليم إسبانيا، ويصبح الحاكم الأوحد لكل أراضيها من أدناها إلى أقصاها كما سبقت الإشارة.

ويكفى تدليلاً على صحة تفسير اختفاء شارلمان ومعه فرنجته من كتابات الإسبان، فيما بين القرنين التاسع والحادى عشر الميلاديين، على النحو المبين آنفاً؛ أن أسلافهم ممن عاشوا فى القرن الثامن الميلادى ويمثلهم إيزيدور الباجى Isidore Pacense - فى عصر ما قبل شارلمان مباشرة، وتحديدًا على أيام أبيه وجده من قبل - قد أبدوا اهتماماً واضحاً بأخبار غالة وتتبع غزوات المسلمين لأراضيها فى تفصيل لافت للنظر، كما أثبتوا على الفرنجة وأشادوا بانتصاراتهم عليهم^(٤٦)؛ ولم يكن ذلك إلا لأن الفرنجة كانوا وقتذاك يدفعون غزواً خارجياً ويدافعون عن أراضيهم، ولم تكن قد تبلورت بعد أطماعهم فى الأراضى الإسبانية. أما وقد وضحت هذه الأطماع على عهد شارلمان - وهى أطماع تنل عليها الروايات الفرنجية ذاتها المعاصرة لشارلمان وابنه لويس من بعده - فلم يكن من الإسبان المعاصرين له واللاحقين حتى القرن الحادى عشر الميلادى إلا أن يتوقفوا عن الثناء على الفرنجة وعلى رأسهم شارلمان؛ ويحجموا عن تتبع أى من أخبارهم، استبعاداً لهم من أى دور ينسب إليهم فى قيادة حركة الاسترداد، التى أرادوها إسبانية خالصة؛ ومن ثم اختفى شارلمان وفرنجته كلية من كتاباتهم؛ ومنذ ذلك الحين أصبحت قضية قيادة هذه الحركة مثار جدل ونزاع بين مؤرخى الجانبين، ينسبها كل منهم إلى بنى وطنه بدون أن يصلوا إلى نقطة التقاء أو اتفاق حتى الوقت الحاضر.

* * *

كان يمكن لمؤرخي إسبانيا - بقية القرن الحادي عشر وما بعده - أن يظلوا على تجاهلهم لشارلمان وإغفال ذكره كسابقهم، لولا أن شهدت إسبانيا مع أواخر هذا القرن وبدايات القرن الثاني عشر إقبالا متزايدا من الفرنجة وغيرهم من الأوروبيين، من المتطلعين إلى جزاء الآخرة بزيارة ضريح القديس يعقوب^(٤٧) في مدينة سنثياجو دي كمبوستلا Santiago de Compostella الجليقية في أقصى الطرف الغربي من الشمال الإسباني. وقد جرت عادة هؤلاء على أن يصطحبوا معهم المنشدين والشعراء ليخففوا عنهم رتابة السفر ومشقة الطريق، بما ينشدونه من قصائد وما يروونه من ملاحم؛ استقوا مادتها من الأحداث التاريخية بعيدة كانت أو قريبة. ولأن الملاحم تنشد -مثما هو شائع في كل عصر - للتسلية والاستثارة فكان الشعراء والمنشدون يستخدمون خيالهم الخصب في استكمال فجوات ملاحمهم، ونسج وقائعها ورسم شخصياتها وإقامة حوارها بما يلبي رغبات الناس تحقيقا لأكبر قدر من التسلية والاستثارة، بغض النظر عن مدى صحة ما يضيفونه أو اتساقه مع الواقع. وغالبا ما كانت هذه الملاحم ترجع إلى عصر شارلمان؛ لاسيما أنشودة رولان La Chanson de Roland^(٤٨) التي انتشرت وقتذاك في إسبانيا، على نطاق واسع لتحكى قصة كارثة رونسفالة بعد أن حولتها إلى انتصار معنوي، وصورت شارلمان في شخصية ملحمية، وجعلته أول من بدأ حركة الاسترداد في إسبانيا، إلى غير ذلك من المعاني التي روجتها الأنشودة في إسبانيا المسيحية من أديانها إلى أقصاها.

ولم تكن سيرة شارلمان التي كتبها إينهارد بأقل انتشارا من أنشودة رولان، وهي وإن كانت أكثر موضوعية فإن موضوعيتها لم تكن مطلقة لما حوته هي الأخرى من مبالغات ومغالطات تجاوزت الواقع في تمجيدها شارلمان وبطولاته، فعدته مثلا أجَلَ ملوك عصره وأكثرهم تميزا، وسمت بأعماله إلى عشرين حين جعلت رجالات العصور اللاحقة يعجزون عن تقليدها^(٤٩)؛ كما بالغت في انتصارات حروبه، وأغفلت في المقابل هزائمه وتجاهلت كثيرا من أخطائه بل وتجاوزت عن جرائمه؛ في حين جعلت علاقاته بغيره من ملوك عصره تدور في إطار التبعية المادية بمفهومها الإقطاعي في العصور الوسطى^(٥٠)؛ ناهيك عن مغالطاتها وادعاءاتها فيما يتصل بنشاطاته على الأرض الإسبانية وعلاقته بملوكها مثما سيجيء بيانه بعد.

ولم يقتصر الأمر على ذلك التيار الفرنجى الدعائى الذى يمجّد شارلمان، وانتشر على كل لسان، وإنما لازمه تغلغل للنفوذ الفرنجى على الصعيدين السياسى والدينى؛ مع تزايد أعداد المغامرين المتدفقين على إسبانيا بشكل ملحوظ منذ عهد الملك ألفونسو السادس (١٠٦٥ - ١١٠٩ م)؛ الذى أفسح المجال للطامعين منهم فى حرث الدنيا وغنائمها بالانخراط فى الجيوش الإسبانية، وذلك بتأثير من زوجته الفرنسية الأصل؛ التى استقدمت هى الأخرى أشرف أقاربها، لاسيما الكونت ريمون والكونت هنرى اللذين زوجتهما من ابنتى الملك بعد أن أقنعه بمنح إحداهما إمارة ولاية جليقية ومنح الأخرى إمارة ولاية لوزيتانيا (شمال البرتغال الحالية)؛ ومن خلالهما بدأ نفوذ الفرنجة السياسى يتدعم بما زاحم نفوذ الإسبان؛ فى وقت كان نفوذهم الدينى هو الآخر قد هيمن على الشؤون الكنسية منذ أن أقام نفس الملك - وبتأثير من زوجته أيضا - برنارد الفرنجى مطرانا على طليطلة، على إثر استعادته إياها من المسلمين عام ١٠٨٥ م، بعدما أعاد إليها مكانتها السياسية القديمة بوصفها عاصمة لإسبانيا وصفتها الدينية بوصفها مركزا رئيسيا لكنيستها؛ ولم يتردد برنارد هو الآخر فى تنصيب مواطنيه الفرنجة على معظم أسقفيات إسبانيا، دون اعتداد بتبرم رجال الدين الإسبان وسخطهم على ما آلت إليه الأمور فى غير صالحهم^(٥١).

كان من الطبيعى أن تستثار حفيظة رجال الدين - وهم الفئة المثقفة المستتبيرة - بنفاق النفوذ الفرنجى فى بلادهم على الصعيدين السياسى والدينى الرسمى؛ إضافة إلى ما روجته ملاحمهم ورواياتهم على الصعيد الشعبى من ادعاءات ومغالطات، نالت من كبريائهم وحطت من قدرهم. لكنهم مع ذلك ما كانوا يجرؤون على التعبير عن تبرمهم بما يجعلهم فى نظر السلطة الحاكمة كالمارقين، فيجلبون على أنفسهم غضبها ويفقدون رضاها وما تبقى لهم من سلطان ونفوذ؛ وتجلّى نكاؤهم فى أنهم اقتربوا من الموضوع بما يرضى غرور الأسرة الحاكمة ويحفظ لها قدرها؛ إذ نحوا جانبا تجاهل أسلافهم المعهود لشارلمان، ليفردوا له مكانا - ولأول مرة - فى كتاباتهم، لكن ليس بهدف التاريخ له ولعصره؛ وإنما لتجريده مما أثارته رواياته الفرنجية من ادعاءات قيادة حركة الاسترداد وحماية الكنيسة الإسبانية، وهو شرف يحرص الملوك الإسبان على الاستئثار به بدون أن ينازعهم فيه أحد حتى ولو كان شارلمان.

ومن حسن الحظ أن لدينا روايتين - من بين ما تبقى من روايات إسبان القرن الثانى عشر الميلادى - تعكسان هذا الاتجاه؛ أولاهما لراهب مجهول الاسم عاش فى النصف الأول من هذا القرن بأحد أديرة مدينة سيلوس Silos بمملكة قشتالة، ولذلك

عرفت روايته بمدونة راهب سيلوس Chronicon Monachi Silensis^(٥٢)؛ والأخرى لراهب آخر مجهول الاسم أيضاً عاش فى النصف الثانى منه (حوالى عام ١٦٠ م)، إما فى مدينة ليون عاصمة مملكة ليون فنسبت إليها وتعرف بمدونة ليون Une Chronique Leonaise؛ وإما فى مدينة ناجرة Najera بمملكة قشتالة، ولذا يطلق عليها أحياناً مدونة ناجرة La Cronica Najerense^(٥٣)، وأياً كان مكان كتابتها فى أى من المملكتين فكلتاها كانتا تحت حكم أسرة واحدة من أصل نبارى. ولأن رواية هذه المدونة ليست إلا تكراراً لرواية راهب سيلوس فيما يتصل بالرد على الادعاءات الفرنجية، فيكفي أن نقصر على مناقشة رواية راهب سيلوس بحكم أنها الأصل الذى نقلت عنه، ومنعاً للتكرار لأن ما يقال عن أى منهما ينسحب على الأخرى.

ومن المصادفات المثيرة للانتباه هنا أن راهب سيلوس، وهو يكتب مدونته على عهد أوراكا Urraca ملكة قشتالة وليون (١١٠٩ - ١١٢٦ م)، قد عقد العزم على أن تدور موضوعاتها حول والدها الملك ألفونسو السادس (١٠٦٥ - ١١٠٩ م)، ويقتصرها على تسجيل أعماله تخليداً لذكراه^(٥٤)؛ أى تدوين سيرته الذاتية؛ متأثراً فى ذلك ولاشك بإبنيارد - وكانت سيرته عن شارلمان بين يديه^(٥٥) - وهى سيرة كتبها على عهد ابنه وخليفته لويس (٨١٤ - ٨٤٠ م)، بهدف أن يسجل قصة حياته العامة والخاصة لتتداولها الأجيال اللاحقة بدلاً من أن يطويها النسيان وتنطوى معه أعماله الشهيرة التى يصعب على رجالات العصور اللاحقة تقليدها^(٥٦). وبهذه الخطوة يعد راهب سيلوس أول إسباني يطرق هذا النوع من التدوين التاريخي، الذى لم يألفه السابقون عليه.

حقيقة تعثرت محاولته ولم يقدر لها أن تحقق غايته فى تسجيل سيرة متكاملة لألفونسو على النحو الذى فعله إبنيارد، لأنه لم يتناول منها سوى فترتي صباه وشبابه، وتوقف بأحداث وفاة والده فى عام ١٠٦٥ م؛ بسبب أنه أدخل نفسه فى مآهات مقدمات تاريخية بعيدة ترجع بتاريخ إسبانيا إلى قرون ستة سابقة على عصره؛ أى منذ عصر قوط طليطلة، فالفتح الإسلامى، فتاريخ ممالك إسبانيا المتعددة؛ حتى أصبحت مدونته تاريخاً لإسبانيا وليس سيرة ذاتية لأحد ملوكها. ومع ذلك فقد لفت الراهب أنظار خلفائه من الكتاب الإسبان إلى أهمية هذا النوع من التدوين التاريخي، فأقبلوا عليه خلال ما تبقى من قرون العصور الوسطى، التى شهدت عدداً من هذه السير بدأت بسيرة ألفونسو السابع ابن الملكة أوراكا امبراطور قشتالة وليون (١١٢٦ - ١١٥٧ م)، لتتوالى بعدها سير ملوك إسبانيا ومشاهيرها، حتى احتل هذا النوع مكانته فى التدوين التاريخي بإسبانيا بفضل ما بدأه راهب سيلوس.

الأمر الثانى أن هذا الراهب وهو فى إطار تهيئة نفسه للرد على ما أثاره إينهارد وأنشودة رولان من مزاعم بطولية لشارلمان على الأرض الإسبانية، كان أيضاً أول إسباني يتنبه إلى أهمية التراث الشعبى الإشباني؛ فنتبع قصصه وجمع قدراً يعتد به منها، ثم وظفها فى سياقها التاريخى بمدونته بعدما أضاف إليها بعض التفاصيل بما يخدم هدفه، ومن هذه القصص: المعجزات الإلهية الخارقة فيما خاضه الإشبانيون من حروب ضد المسلمين، وظهور القديس يعقوب فى المعارك يحارب فى صفوفهم، وصندوق المقدسات الذى جىء به من أورشليم ليستقر فى إسبانيا، وصليب الملائكة، وصليب النصر، إلى غير ذلك من قصص^(٥٧) أخذت ترسخ بعض المفاهيم الإسبانية؛ كإسبانية حركة الاسترداد، والعناية الإلهية لشعبها ودعمها لهم ضد أعدائهم، وسمو مكانة إسبانيا الدينية، وعلو همم ملوكها وحكامها بما يفوق شارلمان مجداً ويبرزه بطولته؛ وتهدف فى الوقت ذاته إلى كشف زيف ما روجته القصص الفرنجية عن بطولات شارلمان على الأرض الإسبانية أو عن نصرته لشعبها أو حمايته لكنيستها. ومنذ ذلك الحين بدأت قصص هذا التراث الشعبى الإشباني تحتل مكانة فى التدوين التاريخى لتصل إلى نروتها سريعاً خلال القرن الثالث عشر.

والأهم من ذلك نجاح الراهب فى انتزاع ثوب البطولة الذى ألبسه إينهارد لشارلمان على الأرض الإسبانية، بما أفردته فى مدونته من حيز -ولو أنه محدود - للرد على مزاعم إينهارد فيما يتصل بنشاط شارلمان فى إسبانيا أو علاقته بملوكها، وهى التى أوردها إينهارد فى موضعين بمدونته؛ تناول فى الموضع الأول منهما قصة أولى مبادرات شارلمان الحربية ضد الأندلس وما انتهت إليه من كارثة رونسفالة، على النحو الآتى:

"أقدم شارلمان، وهو فى خضم حروبه الضارية مع السكسون، على تأمين حدوده معهم بما يلزم مواقعها الاستراتيجية من عدة وعتاد، وزحف بكل ما حشده من قوات إلى إسبانيا عبر جبال البرتات، فاستسلمت له كل مدنها وقلاعها بدون أن تلحقه خسائر تذكر حتى عودته. لكن البشكنس غدروا به أثناء اجتيازه ممرات جبال البرتات، بأن كمنوا على قممها وسط الغابات الكثيفة، فى منطقة تباطأ فيها الجيش وسار فى صفوف ممتدة بطيئة لضيق الممر، وانقضوا على مؤخرته فأبادوها ونهبوا أمتعتها وذخائرها، ثم تفرقوا بسرعة خاطفة فى جنح الظلام؛ ساعدهم على ذلك خفة أسلحتهم ومعرفتهم بطبوغرافية المنطقة، فى حين أضر بالفرجة ثقل عتادهم

وصعوبة المكان. وقد قتل فى هذه المعركة إجهارد معتمد الملك، والكونت أنسيلم، ورولان حاكم بريتاني وغيرهم كثير. وبات من المستحيل على شارلمان أن ينتقم لهذه الكارثة المشؤمة فى حينها، لتفرق العدو بعد أن ضرب ضربته وكأن الأرض ابتلعتة، بحيث لم يعد ممكنا الاهتداء إلى ما توارى فيه من أماكن^(٥٨).

تناول إينهارد فى هذا النص كما هو واضح حملة شارلمان على الأرض الإسبانية، فى أولى مبادراته الهجومية على الأندلس عام ٧٧٨ م؛ مع ملاحظة أنه أورد ضمن روايته عن حروبه الخارجية ضد أعدائه، من سكسون ولبارديين وسلاف وغيرهم. ولما كانت هذه الحروب من وجهة نظر إينهارد دفاعا عن البابوية من خطر الوثنية فقد عد هذه الحملة أيضا دفاعا عنها لكن من خطر المسلمين فى الأندلس؛ على نحو أظهر شارلمان رائدا لحركة الاسترداد فى إسبانيا، وألغى دور الإسبان فيها وطمسه كلية. ولكى يؤكد إينهارد هذا المعنى فقد حول فشل سيده الذريع فى تلك الحملة إلى انتصار وهمى مبالغ فيه، بأن جعل المدن والقلاع الإسبانية تتساقط مستسلمة فى يديه بدون أن تلحقه أدنى خسائر؛ وفى المقابل ألقى على البشكنس (النباريون) تبة ما حل بجيشه من كارثة فى رونسفالة، فاتهمهم بالغدر والخيانة، وعدمهم قطاع طرق انتهازيين لا ييغون سوى الغنائم، ولذلك صورهم بياغتون مؤخرة جيشه لما تحويه من ذخائر وأمتعة وعتاد، ثم يقرقون بسرعة خاطفة حينما تقع فى أيديهم وكأنهم جبنوا عن الصمود والمواجهة؛ إلى غير ذلك مما اعتبره راهب سيلوس تجاوزات ومغالطات تاريخية عليه كشف زيفها، لاسيما وأنها تمس وطنه وتتل من كبرياء الأسرة الحاكمة التى يؤرخ لأحد ملوكها، لارتباط هذه الأسرة بمنطقة نبرة إحدى مسارح أحداث الحملة؛ ولذلك جاء رده على إينهارد بما نصه:

"إن انتهاء معاناة الشعب الإسباني مع المسلمين مرهون بالإرادة الإلهية وحدها وليس بشارلمان، الذى تدعى سيرته المضللة أنه انتزع فى هذه الحملة مدنا وقلاعاً إسبانية من الوثنيين (يقصد المسلمين)؛ وفى وقت كانت حروبه مع السكسون دائرة، وهى حروب امتدت - مثلما تذكر هذه السيرة - ثلاثة وثلاثين عاما تكاد تكون متصلة. ومن ناحية أخرى فإن انسياقه وراء تغريرات ابن العربى حاكم سرقسطة الذى وفد عليه يعرض الخضوع له ويتعهد بتسليمه كل مدن إقليمه، هى التى أسالت لعايه وقتذاك للقيام بهذه الحملة على أمل أن يحقق ما تطلع إلى الاستيلاء عليه من مدن إسبانية. ولذلك لم يتردد فى حشد قواته على الفور، وسلك بها ممرات جبال البرتات

المهجورة حتى وصل آمنا إلى مدينة بمبلونة، التي احتفى به أهلها واستقبلوه استقبالا حافلا يليق به، مع أنهم كانوا يعانون وقتذاك من وطأة سيطرة المسلمين. فلما تقدم إلى مدينة سرقسطة وحاصرها صمدت له وردت هجماته، فاضطر إلى أن يرتد عنها عائدا إلى بلاده بدون أن يحقق شيئا يذكر مما تطلع إليه، أو أن يستعيد الكنيسة من أيدي البرابرة (يقصد المسلمين) الذين أحكموا السيطرة عليها. وكان فشله سببا في انتقامه من مدينة بمبلونة فدمرها في طريق انسحابه، ولذلك كان على جيشه أن يدفع ثمن هذه الجريمة باهظا، فكن له النباريون على قمم الجبال التي عبر ممراتها الضيقة في صف طويل، وانقضوا على مؤخرته التي تحميه فأبادوا كل أفرادها، وعلى رأسهم إجيهارد معتمد الملك وأنسيلم كونت بلاطه ورولان حاكم بريتاني وغيرهم كثير. ولم يتمكن الفرنجة من النثار لهذه الكارثة حتى يومنا هذا^(٥٩).

وأول ما يلفت النظر في رواية الراهب هذه أنها جردت حملة شارلمان على إسبانيا من أي بواعث دينية، وجعلتها تعبيراً عملياً عن أطماعه في الأراضي الإسبانية. وقد تجلّى هذا المعنى في أنه لم يورد هذه الرواية في سياقها التاريخي ضمن أحداث العام الذي وقعت فيه الحملة وهو عام ٧٧٨ م، حسبما يقتضيه المنهج الذي اتبعه في مدونته وهو التأريخ للأحداث حسب التتابع الزمني، وإنما أوردتها في أعقاب روايته عن أحداث الفتح الإسلامي مباشرة (٧١١م)، بعدما أفرد لها عنواناً مستقلاً هو: "Caroli M Adventus in Hispaniam"، أي وصول شارلمان إلى إسبانيا؛ وهو ما يعني أن وصوله إليها كان لذات الهدف الذي أوصل المسلمين إليها قبله، ولذلك استهدفها طمعا فيها مثما استهدفها هؤلاء المسلمون.

ثم طرح الراهب في صدر روايته بديهية إسبانية مؤداها أن مناهضة المسلمين وتخليص البلاد منهم هي قضية إسبانية بحتة منوطة بأهلها وحدهم، ولا يستمدون العون فيها إلا من العناية الإلهية وليس من شارلمان، وفي ذلك - ولاشك - حرص من الراهب على استبعاد شارلمان استبعاداً مطلقاً ومن البداية من شرف الادعاء بمناصرة الإسبان في استرداد بلادهم أو تخليص كنيسهم من المسلمين؛ وهو معنى عاود الراهب تأكيده حينما أشار إلى أن شارلمان اضطر أن ينهي حملته ليعود إلى بلاده، بدون أن يحقق شيئا البتة أو أن يستعيد للكنيسة حريتها؛ متهما إنيهارد بالكذب وروايته بالمضللة في ادعائهما باستسلام ما هاجمه شارلمان من مدن وقلاع إسبانية.

ولكى يدلل الراهب على زيف ادعاءات إينهارد من ناحية، ويؤكد من ناحية أخرى أن أطماع شارلمان فى الأراضى الإسبانية كانت مبيتة وليست وليدة لحظتها فى هذا الوقت بالتحديد؛ فقد عمد إلى كشف ما أخفاه إينهارد من أمر ابن العربى؛ وما عرضه من خطة غزوها على شارلمان الذى لم تكن سرعة انسياقه وراءه إلا لاعتقاده بأنها خطة تكفل له تحقيق أطماعه المسبقة فى المدن الإسبانية. والراهب فى ذلك لم يجاوز الواقع كثيراً؛ إذ من المستبعد بداية أن يقوم شارلمان بحملة كهذه، حشد لها - حسب إينهارد نفسه - ما حشد من قوات وعتاد، لمجرد الاستجابة لرغبة حاكم سرقسطة، أو لفكرة عارضة راودته، وفى وقت لم تكن ظروفه الحربية مواتية، لأنه لم يكن قد فرغ بعد من السكسون الذين امتدت حروبهم معه - مثلاً أكد إينهارد فى السيرة أكثر من مرة - ثلاثة وثلاثين عاماً تكاد تكون متصلة، وبلغت من الضراوة وكثرة النفقات واستنفاد الجهود ما لم تبلغه غيرها من حروبه^(٦٠)؛ ولذلك كانوا يشكلون العقبة الحقيقية على طريق استكمال مشروعه الامبراطورى، الذى وصفه إينهارد بأنه "كان هاجسه طوال مدة حكمه"^(٦١)، وهو هاجس يرجع القسط الأوفر منه - ولاشك - إلى هؤلاء السكسون وامتداد حروبهم مع شارلمان.

وإذا ما أضفنا إلى ذلك أنه ما كانت هناك ضرورة ملحة تجبر شارلمان وقتذاك على أن يوقف حربه وهى فى شدة ضراوتها مع هؤلاء السكسون؛ وعلى النحو المفاجئ الذى صورّه إينهارد ليغزو إسبانيا، مع أنها لم تشكل أدنى خطر له حتى حينه؛ لاستبان لنا أنه كان فى غنى حينذاك عن أن يفتح على نفسه جبهة صراع جديدة قبل أن يفرغ من السكسون، أو أن تتوافر له على الأقل ضمانات نجاح الغزوة فى ضربة سريعة يحصل بها على نصر سهل يتفرغ بعده للسكسون كلية. وهذا الاحتمال الأخير بعينه هو ما تؤيده الروايات الفرنجية^(٦٢) والإسلامية^(٦٣) التى يفهم منها أنه لم يتردد فى القيام بحملته على إسبانيا إثر ما قدمه ابن العربى له من تعهدات تضمن نجاحها؛ وهو ما أكدّه أحد المؤرخين المسلمين الأوائل فى وضوح لاشك فيه، حين أشار إلى أن هذه التعهدات هى التى أطمعت شارلمان فى سرقسطة فخرج إليها حتى حل بها^(٦٤).

ولنا أن نضيف هنا أيضاً - تأييداً لما ذهب إليه الراهب - أن خروج شارلمان إلى إسبانيا فى هذه الحملة لم يكن نصرة للإسبان أو إنقاذاً لكنيستهم، مثلاً يوحى ظاهر نص أورده إينهارد فى موضع آخر من سيرته قال فيه: "إن الأمانة

التي ملكت على شارلمان فؤاده وسيطرت عليه طوال مدة حكمه، كانت إعادة مجد مدينة روما القديم تحت رعايته وبسلطانه، والدفاع عن كنيسة القديس بطرس وحمايتها^(٦٥)؛ فبهذا النص يقر إينهارد، وبطريقة غير مباشرة وربما بدون أن يقصد، أن شارلمان اتخذ من مشروع بعث الامبراطورية الرومانية والدفاع عن كنيسيتها تكئة لإشباع شهوته الجامحة في التفرد بالنفوذ والسيطرة؛ وهو ما يعنيه قوله تحت رعايته وبسلطانه. وإذا ما عرفنا أن إسبانيا كانت جزءا من الامبراطورية الزائلة التي يسعى شارلمان إلى إحيائها، بامتدادها نفسه إن لم يكن أوسع، فيكون من المنطقي ألا يرضى بديلا عن إعادة ضم إسبانيا إليها.

وإذا كان قول إينهارد نظريا بحتا وربما لا يعبر عن الواقع؛ ففي إقدام شارلمان على تدمير مدينة بمبلونة ومحاربة أهلها المسيحيين^(٦٦)، دليل عملي مؤكد على أنه لم يخرج في حملته هذه إلا استكمالا لمشروعه الامبراطوري الذي يحقق به أطماعه الشخصية في النفوذ والسيطرة.

أما الموضوع الثاني من موضوعات اختلاف الراهب مع إينهارد، فدار حول ادعاء الأخير بنجاح حملة شارلمان واستسلام المدن والقلاع الإسبانية له؛ وهو ما أنكره عليه الراهب بشدة وكشف زيفه بإشارته إلى امتناع مدينة سرقسطة عليه وصمودها له صمودا أجبره على إنهاء حملته والعودة إلى بلاده خالي الوفاض تماما؛ فلا هو استولى عليها وهي هدفه الرئيسي، ولا هو انتزع مدنا أو قلاعاً من المسلمين، ولا هو انتصر للمسيحية وأنقذ كنيسيتها من سيطرتهم. ولمرة أخرى تساند الروايات الفرنجية الراهب فيما ذهب إليه، فهي وإن أرجعت ارتداد شارلمان عن سرقسطة إلى معاودة تمرد السكسون في منطقة الراين، فإنها لم تشر ولو تلميحاً إلى أدنى انتصار له أو تفوق عليها؛ بل يوحى مجمل روايتها أنه لم يحقق شيئا يذكر^(٦٧)؛ وهو إحياء أزالته عنه الروايات الإسلامية الشك فيه بتأكيد ما أن شدة مدافعة مدينة سرقسطة وتصديها له هو ما أجبره على إنهاء حملته والعودة إلى بلاده؛ أو كما قال صاحب الأخبار المجموعة: "فقاتله أهلها ودفعوه أشد الدفع فرجع إلى بلاده"^(٦٨)؛ ثم يضيف عليه ابن الأثير ما يؤكد فشله الذريع دون أن يجنى من حملته سوى ذلك الأسير، الذي كان قد تسلمه من ابن العربي قبل بدء الحملة، فأخذه وعاد به إلى بلاده وهو "يظن أنه يأخذ به عظيم الفداء"^(٦٩).

ثم انتقل الراهب إلى ما رواه إينهارد عن أحداث كارثة رونسفالة، فاتفق معه في وصف تفاصيل وقائعها وتطوراتها اتفاقاً وصل إلى حد اقتباس نصه بالفاظه وعباراته وترتيبه، بدون أن يختلف معه إلا في أمرين مهمين؛ يرتبط الأمر الأول منهما فيما اتهم به إينهارد البشكنس من غدر وخيانة وما وصمهم به من انتهازية وجبن. وهى تهم لم يعدم الراهب وسائل نفيها عن بنى وطنه وردها على شارلمان وفرنجته؛ موضحاً كيف أحسنوا استقباله في أول قدومه إلى مدينتهم، وكيف أمن جانبهم طوال غيابه عنهم في سرقسطة، على أنه حين عودته من الأخيرة غدر بهم هو وجنوده بأن فاجأهم بالحرب، وظل مقيماً على تدمير مدينتهم حتى سواها بالأرض دون أدنى جريرة، ومن ثم كان حتماً عليه أن يدفع ثمن غدره وخيانتة باهظاً.

وعلى هذا النحو بادل الراهب اتهام إينهارد باتهام قد يوصف بأنه مبالغ فيه إن لم يكن يشك فيه؛ كون الراهب يدفع غيبة أسلافه النباريين (البشكنس)، ويدافع عن كرامة الأسرة الإسبانية الحاكمة ذات الأصول النبارية؛ وإليها يرجع فضل تأسيس أول حكم مستقل فيها عقب انحسار السيطرة الفرنجية عنها بعد عصر شارلمان؛ ثم امتد سلطانها على كل الشمال الإسباني حتى صارت على عهد الراهب أكبر القوى الإسبانية. لكن على الرغم من ذلك كله فروايتة أقرب من رواية إينهارد إلى الواقعية التي تؤيده فيها الروايات الفرنجية^(٧٠) - المعاصرة لإينهارد نفسه - إذ نصت حين إشارتها إلى وصول شارلمان إلى مدينة بمبلونة قادماً من بلاده على أنه أجبرها على الاستسلام وألزمها الطاعة؛ وهو نص يوحى بعزمه المبيت على إخضاعها ولو بالقوة. كما نصت على تدميره إياها وهو في طريق انسحابه من سرقسطة، وهى وإن لم تذكر ولو تلميحاً مبررات هذا التدمير؛ فقد فسره بعض المؤرخين المحدثين برغبته في القضاء على وسائل دفاع المدينة بعد عجزه عن الاحتفاظ بها تحت سيطرته، إما تأميناً لانسحابه وإما تمهيداً لعودته إذا ما فكر في إعادة الكرة على إسبانيا^(٧١).

وأياً ما كانت مبررات شارلمان لتدمير المدينة، فمما لا شك فيه أنه تم لأسباب ترجع إليه وليس إلى البشكنس، وإلا لما صممت الروايات الفرنجية عن ذكرها فيما لو كانت تتعلق بهم؛ فكان ما كان من أمر رونسفالة، التى أقنعتة-إثر تجربته إهانته- بأن الأجدى له لا يكمن في مهاجمة الأراضى الإسبانية، وإنما في تأمين حدوده معها، إلى أن تحين فرصة أخرى أكثر ملاءمة؛ ولهذا السبب أقام ابنه لويس - فى عام الكارثة نفسه - حاكماً على مقاطعة أكيثانية، وعهد إليه مهمة رصد

التحركات على الجانب الإسباني، مع امتداد الأودية الجنوبية لجبال البرتات، والتدخل في الوقت المناسب لقمعها والرد عليها إذا اقتضى الأمر؛ فلعب لويس دوره بنجاح حتى فرض السيطرة الفرنجية على تلك المنطقة مع مطلع القرن التاسع الميلادي، لتتشأ فيها إمارة فرنجية داخل الأراضي الإسبانية كما سبقت الإشارة.

أما النقطة الثانية، وهي التي أنهى بها الراهب مناظرة إينهارد، فتعلقت بما برر به الأخير عجز شارلمان عن الثأر لكارثة رونسفالة في حينها باختفاء البشكنس، وكان الأرض انشقت فابتلعته حتى بات من المستحيل الاهتداء إليهم؛ وهو تبرير دحضه الراهب وكذبه مؤكداً أن شارلمان وفرنجته لم يتمكنوا من الثأر لها حتى عصره؛ أي حتى القرن الثاني عشر، بما يعنى أنهم كانوا ولا يزالون أعجز عن الثأر لها.

وإضافة إلى ما يمكن أن يستشفه المرء في عبارات هذا الرد من مظاهر التفاخر التي تدل على أن مفهوم القومية في إسبانيا صار حقيقة واقعة وقتذاك، فإنه يؤكد حقيقة تاريخية لا تنكرها المصادر الفرنجية؛ ومؤداها أنه على الرغم من نجاح الفرنجة في إخضاع نبارة لسيطرتهم نحو نصف قرن منذ بدايات القرن التاسع (٨٠٦ م)، فإن أيّاً من المصادر فرنجية أو غيرها لا تسجل أدنى إشارة إلى أنهم استطاعوا الثأر لهذه الكارثة ولو مرة؛ وإنما على العكس من ذلك أفرت بأنهم كانوا يتعرضون لضربة مماثلة، وفي المكان نفسه خلال عام ٨١٢ م، لولا أن تدارك لويس ابن شارلمان الموقف بأن أجبر البشكنس على تقديم رهائن لمراقبته تأمينا لطريق عودته على رأس جيشه إلى بلاده^(٧٢). لكنهم مع ذلك وقعوا في المحذور عام ٨٢٤ م حينما حلت بهم كارثة أخرى مشابهة، أطلق عليها أحد المؤرخين رونسفالة الثانية "El Segundo Ronscesvalles"^(٧٣)، أبيد فيها معظم جيشهم في ممرات رونسفالة نفسها، وسقط قائده في الأسر^(٧٤)، وكانت كارثة قاصمة للنفوذ الفرنجي في إسبانيا، إذ بدأ بها انحساره الفعلي عن الشمال الإسباني كله بما فيه نبارة.

ولنا أن نشير هنا إلى أن ما أبداه الراهب من حماس واضح في الرد على رواية إينهارد، فيما يتصل بنشاط شارلمان الحربى في إسبانيا حتى كارثة رونسفالة، واستغراقه في رد غيبة أسلافه النباريين، والدفاع عن كرامة الأسرة الحاكمة ذات الأصول النبارية؛ لم يقابله أدنى اهتمام أو التفات إلى ما حواه نص آخر لإينهارد عن طبيعة علاقة شارلمان بألفونسو الثانى ملك أستوريس (٧٩١ - ٨٤٢ م)،

وهي العلاقة التي جعلها تدور في إطار التبعية لشارلمان بمفهوم تبعية إقطاع العصور الوسطى؛ وذلك في قوله: "لقد كان التحالف الذي أقامه (شارلمان) مع ألفونسو ملك جليقية وأشتوريس تحالفا وثيقا، حتى إن الأخير كان يصف نفسه فيما يبعثه إليه من رسائل أو سفراء بأنه أحد أتباعه"^(٧٥). ومن المستبعد أن يكون قد فات على الراهب الرد على هذا النص ليسترد لألفونسو وضعه الذي أفقده له إينهارد في علاقته بشارلمان، والراجح أنه وفر على نفسه عناء رد غيبة ملك قوطى قد ولّى وولت معه سلالته القوطية برمتها دون رجعة، منذ وفاة آخر ملوكها برمودة الثالث عام ١٠٣٧م، وانتقال الحكم إلى أسرة نبارية^(٧٦) صارت على عهد الراهب القوة الرئيسية في إسبانيا المسيحية وهي التي استغرق في الدفاع عنها واستعادة مكانتها.

لكن وإن كان راهب سيلوس يمثل تيار الدفاع عن الكبرياء الإسباني المعادى لشارلمان وفرنجته، بما أبداه من حماس في مناهضة ادعاءاتهم الفرنجية؛ فقد عاصره من أساء استخدام هذه الادعاءات لتحقيق مكاسب شبه ذاتية قدموها على أى اعتبار وطنى؛ مثل بلايو Pelayo^(٧٧) أسقف كنيسة سان سلفادور San Salvador بمدينة أوبيدو الأشتورية؛ الذى يعد من أكبر مزورى القرن الثانى عشر^(٧٨)؛ حيث جره طموحه الجارف لتوسيع سلطانه الدينى على كنائس إسبانيا إلى الدخول فى منافسة غير متكافئة مع أسقف كنيسة سمنتياجو الجليقية، دفعته إلى تلقى أسانيد يدعم بها أحقية كنيسته وأهليتها لهذا الشرف، مستفيدا مما تروج له الملاحم وتردده النصوص الفرنجية عن مجد شارلمان الأسطورى على الأرض الإسبانية، فنسب إليه أعمالا يعلى بها من شأن كنيسته ومدينتها أوبيدو، ودهسها فيما تحت يديه من نصوص ووثائق إسبانية، وهو ما انعكس على تعقد تركيبة صورة شارلمان فى هذه المصادر؛ حيث ظهر فيها وكأنه صاحب القرار فى إسبانيا بتدخله المؤثر فى توجيه شئونها لاسيما الدينية.

ويستخلص ما أقدم عليه بلايو من تزييف يتصل بشارلمان فى أنه أقحم اسمه على مجمع أوبيدو الأول المنعقد فى عهد ألفونسو الثانى عام ٨٢١م، بمباركة بابا يدعى جوان (يوحنا)، للبت فى رفع كنيسة سان سلفادور إلى مرتبة الأسقفية؛ وجعله مشاركا رئيسيا فى جلساته بوفد ترأسه أحد أساقفته. كما اختلق قصة مجمع آخر انعقد فى نفس المدينة حوالى عام ٩٠٠م أى فى عهد ألفونسو الثالث، برعاية شارلمان ومباركة ذات البابا أيضا، للنظر فى نفس موضوع المجمع الأول. ولكى يضيفى بلايو صفة الجدية والثقة على هذه المعلومات فقد أضاف ما تعلق منها

بالمجمع الأول إلى مخطوط قرارات هذا المجمع^(٧٩)، أما ما تعلق بالمجمع الثانى فقد أضافه على نص مخطوط مدونة الأسقف سامبيرو^(٨٠) من القرن الحادى عشر. ومع هذا التمويه فإن ما أضافه بلايو هنا أو هناك صاغه بما يتفق وهواه إن لم يكن قد اختلفه كله؛ وذلك استنادا على اعتبارات عدة توجز فيما يلى:

إن المدونات — إسبانية وفرنجية — السابقة على بلايو واللاحقة له حتى نهاية القرن الثانى عشر تخلو كلية من أى إشارة أو تلميح يفهم منه انعقاد مجمع ما فى عهد ألفونسو الثانى أو فى عهد سمييه الثالث. ومع ذلك فليس هناك ما يمنع أن يكون قد انعقد مجمع على أيام ألفونسو الثانى، فى إطار برنامجه لإعادة هيكلة نظم مملكته السياسية والدينية على نمط ما كانت عليه أيام القوط^(٨١)، ليتولى وضع ضوابط وأطر هذه الهيكلة وإقرارها، وحسبنا فى ذلك أن قرارات المجمع قد انصبت على هذا الجانب التنظيمى وفيما يتصل بالشئون الدينية على وجه الخصوص.

وأياً ما كانت حقيقة انعقاد هذا المجمع من عدمه، فمما لا شك فيه أن ما نسبته بلايو من مشاركة لشارلمان فى مداولاته ليس إلا محض تلفيق، لأن تاريخ انعقاده (٨٢١م) يجاوز تاريخ وفاة شارلمان (٨١٤م) بسبع سنوات. زد على ذلك أن توقيعات المشاركين فى المجمع تخلو من توقيع موفده (ثيودولفو Theodulfo)، رغم الإشارة إليه فى صدر محضر الاجتماع ضمن أسمائهم^(٨٢)؛ ومن ناحية ثالثة فلم يعاصر المجمع أى بابا يدعى جوان (يوحنا)، فجوان السابع توفى عام ٧٠٧م، أما جوان الثامن فلم يصل إلى كرسيه إلا عام ٨٧٢م؛ فأى جوان هذا الذى بارك المجمع مثملاً بذكر بلايو؟

وإضافة إلى هذه العقبات تبرز عقبة ذات طبيعة عامة مؤداها: وبأى صفة شارك شارلمان فى جلسات المجمع ومداولاته؟ وربما تكون الإجابة على ذلك سريعاً بالقول: بحكم ما كان بينه وبين ألفونسو الثانى من علاقة، فضلاً عن تعاونهما فى التصدى لهرطقة التبنى. إلا أن هذه الإجابة تظل ناقصة حتى لو سلمنا بأنها نهائية، لأن مداولات المجمع — وطبقاً لبلايو نفسه — تقيد أن مشاركته لم تتطرق لأمر عقدي، وإنما: "ليؤكد على أن مساحة إسبانيا تكفى لزيادة عدد أسقفياتها من عشرين إلى ثلاثين أسقفية"^(٨٣)؛ وهنا يقفز تساؤل إلى الأذهان: وهل كانت معلومات شارلمان عن إسبانيا أفضل من معلومات صاحب الشأن وهو ألفونسو؟

أما قصة المجمع الثاني^(٨٤) فهي ولاشك مختلفة بكاملها لانتهاء أى دليل أو حتى قرينة توحى بانعقاده؛ وحتى إذا ما سلمنا جدلاً بانعقاده فكيف تستقيم مشاركة شارلمان فيه وكان قد توفى قبل تاريخ انعقاده بما يقارب القرن بقليل، بحيث لم يقدر له أن يعاصر ألفونسو الثالث (٨٦٦-٩١٠م) أو البابا جوان التاسع (٨٩٨-٩٠٠م)، ومن عاصرهما كان أحد أحفاده وهو شارل البسيط (٨٩٣-٩٢٩م).

والمؤكد هنا أن ازدواجية ما أورده بلايو عن عقد مجمعين في أوبيدو، وفي عهد ملكين إسبانيين هما ألفونسو الثاني وسميه الثالث، ومشاركة ملكين فرنجيين كلاهما يدعى شارلمان، ومباركة بابوين يسميان جوان (يوحنا)؛ لا تعنى إلا أنه استمد من المجمع الأول ما نسج منه قصة المجمع الثاني، لاسيما وأن موضوع المجمعين واحد وهو رفع كنيسة سان سلفادور إلى مرتبة الأسقفية؛ ومع ملاحظة أن الفارق الزمنى بينهما يجاوز ثلاثة أرباع قرن، فإن معظم قرارات المجمع الثاني مستمدة نصاً وأسلوباً من قرارات المجمع الأول. وعلى ذلك فلا يمكن أن تحمل رواية بلايو من مظاهر الحقيقة سوى صحة انعقاد المجمع الأول وبدون مشاركة شارلمان؛ وما عدا ذلك فهو من نسج خياله لغرض في نفسه مثلما سبقت الإشارة.

صفوة القول أن اختفاء شارلمان من المصادر الإسبانية حتى القرن الحادى عشر لم يكن إلا طمساً لوره على الأرض الإسبانية؛ إرضاءً لغرور ملوك الإسبان فى الاستئثار بشرف قيادة حركة مناهضة مسلمى الأندلس، بوصفها قضية إسبانية بحته ومنوطة بهم وحدهم دون مشاركة خارجية من شارلمان أو غيره؛ خاصة وأنه قد ولى وخارت امبراطوريته من بعده. أما ظهوره فى مصادر القرن الثانى عشر فلم يكن بقصد التأريخ له أو رد اعتباره، وإنما رد فعل لما روجته رواياته وملاحمه الفرنجية عن مآثره البطولية على الأرض الإسبانية كرائد لحركة الاسترداد ونصير للكنيسة الإسبانية؛ إلا أن اختلاف رؤية مؤرخى هذا القرن وتباين تناولهم لتلك المآثر قد ترتب عليه تعقد تركيبة صورته فى كتاباتهم؛ ففى الوقت الذى نجح بعضهم فى انتزاع ثوب البطولة الذى ألبسته له الروايات الفرنجية المقروءة؛ فقد أسهم البعض الآخر فى ترسيخ ما جسده فيه الملاحم المروية من مآثر بطولية، بحيث ظلت تواصل انتشارها وغلبتها على المستوى الجماهيرى حتى صارت إسبانيا سوقاً نافقة لها، فاننقلت مهمة التعامل مع هذه الظاهرة لكتاب الجيل اللاحق لهم أى جيل القرن الثالث عشر؛ وتلك قضية تحتاج دراسة مستقلة لاحقة بعون الله.

الملحق الأول

نص رواية إينهارد عن نشاط شارلمان الحربى فى إسبانيا^(١)

9. Cum enim assiduo ac paene continuo cum Saxonibus bello certaretur, dispositis per congrua confinium loca praesidiis, Hispaniam quam maximo poterat belli apparatu adgreditur, saltuque Pyrinei superato, omnibus quae adierat oppidis atque castellis in deditionem acceptis, salvo et incolomi exercitu revertitur; praeter quod in ipso Pyrinei iugo Wasconiam perfidiam parumper in redeundo contigit experiri. Nam cum agmine longo, ut loci et angustiarum situs permittebat, porrectus iret exercitus, Wascones, in summi montis vertice positus insidiis - est enim locus ex opacitate silvarum, quarum ibi maxima est copia, insidiis ponendis oportunus - extremam impedimentorum partem, et eos, qui novissimi agminis incedentes, subsidio praecedentes tuebantur, desuper incursantes, in subiectam vallem deiciunt, consertoque cum eis proelio, usque ad unum omnes interficiunt, ac direptis impedimentis, noctis beneficio, quae iam instabat, protecti, summa cum celeritate in diversa disperguntur. Adiuvabat in hoc facto Wascones et levitas armorum, et loci in quo res gerebatur situs; e contra Francos et armorum gravitas et loci iniquitas per omnia Wasconibus reddidit impares. In quo proelio Eggihardus regiae mensae praepositus, Anselmus comes palatii, et Hruodlandus Britannici limitis praefectus, cum aliis compluribus interficiuntur. Neque hoc factum ad praesens vindicari poterat, quia hostis re perpetrata ita dispersus est, ut ne fama quidem remaneret, ubinam gentium quaeri potuisset.

(١) نقل عن: Einhardi Vita Karoli, ed. Pertz Monumenta Germaniae Historica Scriptorum, Hannoverae 1829, 2 pp. 447-448 no.9.

الملحق الثانى

نص رواية راهب سيلوس فى رده على إينهارد^(١)

CAROLI M. ADVENTUS IN HISPANIAM

18. Ceterum a tanta ruina, praeter Deum Patrem, qui a peccatis hominum in virga misericorditer visitat, nemo exterarum Gentium Hispaniam sublevasse cognoscitur Sed neque Carolus, quem infra Pyreneos montes quasdam Civitates a manibus Paganorum eripuisse Franci falso asserunt Quum enim per XXXIII annos (ut in gestis ejusdem habetur) bellum cum Saxonibus protraheret, venit ad eum quidam Maurus nomine Hibinnaxalabi, quem Caesaraugustano Regno Abderramen magnus Rex Maurorum praefecerat; spondens sese, & omnem Provinciam suae ditioni subditurum, Tunc Carolus Rex persuasione praedicti Mauri spem capiendarum Civitatum in Hispaniam mente concipiens, congregato Francorum exercitu per Pyrinea deserta juga iter arripiens ad usque Pampilonensium oppidum incolumis pervenit: quem ubi Pampilonenses vident, magno cum gaudio suscipiunt. Erant enim undique Maurorum rabie coangustati. Inde quum Caesaraugustam Civitatem accessisser, more Francorum, auro corruptus, absque ullo sudore procipienda a Barbarorum dominatione Sancta Ecclesia, adpropria revertitur. Quippe bellatrix Hispania duro, non togato milite concutitur. anhelabat etenim Carolus in terminis illis citius lavari, quas gravi ad hoc opus deliciose construxerat.

19. Porro quum in reditu Pampilonium Maurorum oppidum destruere conaretur, Pars maxima exercitus sui in ipso Pyrinea jugo magnas exolvit poenas. Siquidem cum agmine longo, ut

(١) نقلًا عن: Chron Silensis, ed. Florez, Espana Sagrada, 2nd ed., Madrid 1789, t 17 pp. 271-272 nos 18-19.

angusti loci situs permittebar, porrectus iret exercitus, extremum agmen quod praecedentes tuebatur, Navarri desuper incursantes aggrediuntur. Consertoque cum eis praelio, usque ad unum omnes interficiunt. In quo bello Egibardus mensae Caroli Regis Praepositus, Anselmus sui Palatii comes, Rotholandus Britanicus Praefectus cum aliis compluribus ceciderunt. Quod factum usque in hordiernum diem inultum permansit. Haec de Carolo quum breviter dixiisem, ad inceptum redeo.

- (١) وذلك في أعقاب انتصاره في موقعة بلاط الشهداء ، ثم استعادة دوقيتي بروفانس وأكيتانية من المسلمين ، ومطاردتهم في دوقية سبتمانية حتى لم يبق لهم سوى مدينة أربونة. وفي ذلك انظر: Chronicon Moissiacense, ed. Pertz, Monumenta Germaniae Historica, Scriptorum, Hannoverae 1826, Ipp291-292; Einhardi Vita Karoli Imperatoris, ed. Pertz, MGH Scriptorum, Hannoverae 1829, 2p444, no2. Lewis Thrope إلى الإنجليزية مع نص آخر ونشرهما بعنوان: Einhard and Notker the, Two Lives of Charlemagne, Penguin Classics, England 1981 النص الأول في الصفحات ٥٦-٩٠، وهذه الترجمة هي التي سنشير إليها بالترجمة الإنجليزية؛ كما نقل عادل زيتون إحدى الترجمات الإنجليزية إلى العربية ونشرها بعنوان: سيرة شارلمان ، دمشق ١٩٨٩م ، وهي التي سنشير إليها بالترجمة العربية.
- (٢) قارن: Vita Karoli, op cit, 2 pp 443-4 (= الترجمة الإنجليزية، ص ٥٥، ٥٦، ٥٧؛ Annales Mettenses Priores, ed. B. De (٤٣-٤٤، ٤٤-٤٦)؛ Simson, Hannoverae 1905, pp 42-44; Einhardi Fuldensis Annales, ed. Pertz, MGH Scriptorum , Hannoverae 1826 , 1p 346 ; Annales Laurissenses et Einhardi, ed. Pertz, loc. cit, 1p 138, 139; Chron. Moissiacense, op cit, 1p294.
- (٣) انظر: Vita Karoli, op cit, 2 pp 445-446 no 6 (= الترجمة الإنجليزية، ص ٦٠-٦١؛ الترجمة العربية، ص ٦٠-٦٤).
- (٤) Loc. Cit, 2 pp 445-450 nos 5,7-8, 10-14. (= الترجمة الإنجليزية، ص ٦٠، ٥٩، ٦١-٦٨؛ الترجمة العربية، ص ٥٦-٥٧، ٧٣-٨٠، ٩٥).
- (٥) عن حدود امبراطورية شارلمان التي شملت الغرب الأوربي كله فيما عدا الجزر البريطانية وجنوب إيطاليا، انظر: Loc Cit, 2 pp 450-451 no15 (= الترجمة الإنجليزية، ص ٦٨-٧٠؛ الترجمة العربية، ص ٩٦-١٠٢).
- (٦) Loc Cit, 2 pp 451-452 no 16 (= الترجمة الإنجليزية، ص ٧٠-٧١؛ الترجمة العربية، ص ١٠٣-١٠٧).
- (٧) قارن: المقرئ، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨م، (ص ٣٣٠-٣٣١؛ ابن حيان، المقتبس الثاني، مخطوط بمكتبة الأكاديمية الملكية للتاريخ، مدريد ١٩٩٩م (طبعة فكميلية)، ص ٢٥، Annals Regni Francorum, ed F. Kurze, Hannoverae 1895 , ٢٥٠ p137 ; Annales Laurissenses et Einhardi, op cit, 1pp 199-200.
- (٨) ظلت قشتالة كونتية حتى امتد إليها سلطان ملوك نبارة عن طريق الوراثة عام ١٠٣٧م، فأعلنوها مملكة تابعة لهم، كما مدوا سلطانهم إلى مملكة ليون؛ إلى أن اتحدت قشتالة وليون نهائياً تحت تاج واحد عام ١٢٣٠م وعرفت بمملكة قشتالة. وفي عام ١٤٧٩م اتحدت الأخيرة مع جارتها مملكة أراجون بزواج ملكتها إيزابيلا من فرناندو الأراجوني، وباتحادهما بدأت تتشكل أساس إسبانيا العصر الحديث مع مطلع القرن السادس عشر. راجع: R. E. Tapsell, Monarchs, Rulers, Dynasties and Kingdoms of the world, 1st ed. Great Britain 1984, pp 40, 84 نفسه ، ص ٢٣٠، ٢٣٥-٢٣٦؛ وانظر أيضاً: نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوربة، ط١، بيروت ١٩٦٧م، ص ٤٣٠-٤٣١، ٤٣٣.

(٩) لم يكن الفتح الإسلامي لشبه جزيرة إيبيريا عام ٩٢هـ/٧١١م حاسماً في القضاء على السيادة القوطية كلية، إذ أنه على الرغم من سيطرة المسلمين على معظم أقاليم شبه الجزيرة بما فيها العاصمة طليطلة فقد أفلتت دوقية كنتبرية بأقصى الشمال من سيطرتهم، فظلت السيادة عليها لحاكمها القوطي بدرو؛ الذي خلفه حين وفاته عام ٧٣٩م ابنه ألفونسو (الأول)، وهو الذي حول الدوقية إلى مملكة لاسيما بعد انضمام الإقليم المجاور له غرباً وهو شرقي أستوريس، وتعاقدت ذريته القوطية على حكم هذه المملكة حتى زوالها عام ٩١٠م بقيام مملكة ليون التي ظلت قائمة حتى وفاة برمودة الثالث عام ١٠٣٧م فانتهت به السلالة القوطية، وآل حكم هذه المملكة ومملكة قشتالة عن طريق المصاهرة والوراثة إلى ملوك من أصل نباري، حتى اندمجتا نهائياً عام ١٢٣٠م في مملكة واحدة هي مملكة قشتالة. وكانت مملكة أستوريس ووريثتها ليون استمرارا وامتدادا لمملكة القوط البائدة. ومن هنا نلاحظ أن المؤرخين الإسبان الأوائل ربطوا بين آخر ملك قوطي وأول ملوك أستوريس، وأشاروا إلى الآخرين باسم عاصمتهم أوبييدو تمييزاً لهم عن ملوك طليطلة القوط، وأرخوا لهم تحت عنوان: "Item Ordo Gothorum Ovetensium regum" أي تتابع ملوك أوبييدو القوط انظر: Chron Albeldense, ed. Florez, Espana, Sagrada, Madrid 1756, 13 p 450 وأرخوا لهم تحت عنوان: "Item Nomina Regum Catholicorum Legionensium" انظر: Chron Profetica, ed. Moreno, las Primeras Crónicas de la Reconquista, Boletín de la Real Academia de la Historia, Madrid 1932, 100p 628.

(١٠) Vita Karoli, op cit, 2pp 446-447 (= الترجمة الإنجليزية، ص ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤؛ الترجمة العربية، ص ٦٥، ٦٧، ٧٢، ٧٤).

(١١) Annales Tiliani, ed. Pertz, MGH Scriptorum, Hannoverae 1826, 1p220; Einhardi Fludensis Annales, op.cit., 1p349. Annales Regni Francorum, op cit, pp 48, 49.

(١٢) عن هذه الحملة قارن: Vita Karoli, op cit, 2pp 447-448 (= الترجمة الإنجليزية، ص ٦٤-٦٥؛ الترجمة العربية، ص ٧٤-٧٩)؛ Annales Regni Francorum, op cit. p 48, 50, 51; Annales Tiliani, op cit, 1 pp 220-221; Einhardi Fuldensis Annales, op cit, 1p 349; Menendez Pidal, Historia de Espana, 2nd ed., Madrid 1964, 6 pp 274-275; Codera, Coleccion de Estudios Arabes, Estudios Criticos de Historia Arabe Espanola, Madrid 1917, 8 pp 136-159. أخبار مجموعة، تحقيق لافونتي الكنترا، مدريد ١٨٦٧م، ص ١١٣؛ العذري، نصوص عن الأندلس، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد ١٩٦٥م، ص ٢٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، صححه محمد يوسف الدقاق، ط ٣، بيروت ١٩٩٨م، ص ٢٤٦.

(١٣) انظر: المقرئ، نفح، ١ ص ٣٣٠-٣٣١ حيث يقول إن عبد الرحمن الأموي: "خاطب قارلة بعد أن تمرس به مدة، فصابه صلب المكسر تام الرجولية فمال إلى المدارة ودعاه إلى المصاهرة والسلم، فأجابته للسلم ولم تتم المصاهرة". وعن مناقشة أيهما بدأ الاتصال بالآخر انظر: محمد محمد مرسى الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ط ٢، مؤسسة الثقافة الجامعية ١٩٩٠م، ص ٢١٨-٢٣٢ والمراجع المعطاة.

(١٤) ولذلك عرفت بقضية التبنّي، وعنهما بتفصيل راجع: Einhardi Fuldensis Annales, op cit, 1p 179; Annales Regni Francorum, op cit, p 90; Annales Mettenses, op cit, p79; Risco, Espana Sagrada, Madrid 1789, 37 pp 122-125; Sanchez Albornoz, Origenes de la Nacion Espanola, Madrid 1974, 2 pp 216-221 نور الدين حاطوم، نفسه، ص ٢٥٥-٢٥٦.

- (١٥) من أمثلة هذه المجادلات رسالة الأسقفين إيتريو Eterio وبياتو Beato الأشتوريين إلى اليبانود، في أكتوبر ٧٨٥م، التي ينددان فيها بأرائه وبشيران إلى ما أحدثته من فتن واضطرابات في كل من أشتوريس وغالة، انظر: Florez, Espana Sagrada, 5 apen 10 pp526 Sq; Risco, op cit, 37p124; Barrau-Dihigo, Recherches sur l'histoire Politique de Royaume Asturien, Revue Hispanique, Paris 1921, 52 p109 no1.
- (١٦) عن هذه المجامع راجع: Einhardi: Annales Regni Francorum, op cit, p 90, 94; Annales, ed. Kurze, Hannoverae 1895, p.91, 95; Annales Mettenses, op cit, p 74, 80; Einhardi Fuldensis Annales, op cit, 1 pp 350-351. حاطوم، نفسه، ص ٢٥٦-٢٥٧.
- (١٧) أشار إلى رحلته هذه بدون أن يحدد تاريخها، في مقدمة عمله: "Cultu Imaginum" المنشور في مجموعة: Partologia Latina, ed. Migne, Paris 1851, 106 pp 308-388 وذلك بقوله: "Elipandus scilicet Asturiam et Galliciam (appetivit) cujas discipulus apud Astures me aliquando vidisse memini".
- (١٨) أشار هو الآخر إلى رحلته إلى أشتوريس في عمله المنشور في المجموعة السابقة نفسها Paris 1851, 105 pp 91-380 كما أشاد المجمع الديني المنعقد في العاصمة الأشتورية عام ٨١٢م بنشاطه في محاربة الهرطقة في أشتوريس، وعن جدول أعمال هذا المجمع انظر: Risco, op cit, 37 pp 295-301.
- (١٩) نشأ وتربى في أحضان الأبيرة ولم يغادرها إلا حين استدعائه لاعتلاء العرش، ولما تنازل عنه بعد حكم لم يدم سوى نحو ثلاث سنين عاد إلى الأبيرة ثانية وعن ذلك بتفصيل انظر: Cron, Silensis, ed. Florez, Espana Sagrada, Madrid 1789, 17 p 280; Cron de Lucas de Tuy, ed. Puyol, Madrid 1926, p 283; Cron del Rodrigo, ed. Fuensanta, Coleccion de Documentos Ineditos para la Historia de Espana, Madrid 1893, 105 pp 259.
- (٢٠) قارن: مجهول، ذكر بلاد الأندلس، حققه لويس مولينا L. Molina، مدريد ١٩٨٣م، ص ١٢١؛ ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق بروفنسال، ليدن ١٩٥١م، ص ٦٣-٦٤، Annales Compostellani, ed. Huici, Las Crónicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, 1p 60; Historia Arabum. Ed. Sanchez, Anales de la Universidad Hispalense 1974, 21 p 36; Chron. Albeldense, ed. Florez, 13p 451.
- (٢١) Chron. Sebastiani, ed. Florez, Espana Sagrada, Madrid 1756, 13 p 484; Chron Lusitanum, ed. Florez, Espana Sagrada, Madrid 1758, 14 p 403; Chron Albeldense, ed. Huici, 1p 54.
- (٢٢) قارن: مجهول، ذكر، ص ١٢١-١٢٢؛ المقرئ، نفح، ص ٣١٦-٣١٧؛ ابن عذارى، البيان، ص ٦٤-٦٥؛ النويري، نهاية الأرب، تحقيق G. Remiro، غرناطة ١٩١٧م، ٢٢/١ ص ٢٣-٢٤؛ ابن الأثير، الكامل، ص ٣٠٤، ٣٠٦؛ Chron, Sebastiani, op cit, 13 p 484; Chron. Leonaise, ed. Cirot, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1911, 13 p394; Chron. Albeldense, ed Florez, 13 pp451-452; Primera Cronica General, ed. Pidal, Madrid 1955, 2 pp 451-452.

- (٢٣) قارن: ابن الأثير، الكامل، ٥ ص ٣٠٦؛ ابن عذارى، البيان، ٢ ص ٦٤؛ النويرى، نهاية، ١/٢٢ ص ٢٤؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٩٢م، ٤ ص ١٥٠.
- (٢٤) "Venit etaim et legatus: Annales Regni Francorum, op cit, p 102 Hadeconsi Regis Galiciae et Asturiae nomine Froia, Papilionem mirae Annales Laurisenses, op cit, 1p انظر أيضاً: "Pulchritudinis Praesentans" 184; Einhardi Fuldensis Annales, op cit, 1p 351; Annales Mettenses, op cit, p82; Annales Tiliani, op cit, 1 p 222.
- (٢٥) "Adefonsis Galleciarum Principis missos ed. Pertz, op cit, 2 p 611. quos pro amicitia Firmanda miserat, cun donis, suscepit et pacifice remisit".
- (٢٦) Vita Karoli, op cit, 2 p 451 (= الترجمة الإنجليزية، ص ٧٤؛ الترجمة العربية، ص ١٠٣) ونصها: "Adeo namque Adelfonsum Galliciae atque Asturicae Regem sibi sicietate divinxit".
- (٢٧) انظر: Annales Regni Francorum, op cit, p 104: "Hadeconsus etiam Rex Galiciae et Asturicae predata olisipona insignia victoriae suae loricas, mulos captivosque Mauros domno regi per legatos suos Froiam et Basiliscum Annales Mettenses, op cit, p 83; Annales: "hiemis tempore misit" Tiliani op cit 1p 222; Einhardi Fuldensis Annales, op cit, 1p 352.
- (٢٨) بتفصيل قارن: Vita Hludowici, op cit, 2 p 611 nos 8, 10, p 612 no 13, p 613 no 14, p 614 no 15, p 615-616 nos 17-18: Annales Regni Francorum, op cit, pp 100, 101, 108, 109, 116, 127, 130, 133, 137; Annales Tiliani, op cit 1 pp 222-223؛ وانظر أيضاً: ابن حيان، المقتبس الثاني، ص ١٥-١٦، ٢٥-٢٦، ٢٨-٢٩.
- (٢٩) حققت عدة مرات وأدقها تحقيق غومث مورينو Gomez Moreno ، الذى نشرها بنصها اللاتينى بعنوان: La Cronica Rotense نسبة إلى مكان العثور على مخطوطتها، ملحقه على مقاله: Las Primeras Cronicas de la Reconquista فى مجلة: Boletin de la eal Academia de la Historia, Madrid 1932, 100 pp 609-621.
- (٣٠) حققت عدة مرات أيضاً وأهمها تحقيق فلوريت H. Florez الذى نشرها بنصها اللاتينى فى مجموعة: Espana Sagrada, 1sted. Madrid 1756, 13 apen 7 pp 464-498. هذا وقد نشر زكريا فيلادا Z. Villada نص هذه المدونة والمدونة السابقة عليها فى كتاب بعنوان: La Cronica de Alfonso III, Madrid 1918، ويشمل نص مدونة سباستيان الصفحات ٥٣-٨٥، ونص مدونة ألفونسو الصفحات ٩٩-١٣١.
- (٣١) حققت عدة مرات أيضاً إلا أن أكملها وأدقها التى نشرها H. Florez بنصها اللاتينى فى مجموعة: Espana Sagrada, op cit, 13 apen 6pp 417-464.
- (٣٢) حققها مورينو G. Moreno ونشرها بنصها اللاتينى ملحقه على مقاله السابق الذكر، ص ٦٢٢-٦٢٨.
- (٣٣) حققها فلوريت Florez ونشرها بنصها اللاتينى فى نفس مجموعة: Espana Sagrada, 1sted., Madrid 1758, 14 pp 438-457 ثم نشرها Miranda Huici مصحوبة بترجمة قشتالية فى كتابه: Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, 1 pp 240-306.

(٣٤) قارن بتفصيل: Miguel Stero, El Latin de la Cronica de Alfonso III, Cuadernos de Historia de Espana, Buenos - Aires 1946, 4 p 125 Sq; Sanchez Albornoz, La Redaccion Original de la Cronica de Alfonso III, Spanische Forschungen der Gorresgesellschaft Munster, 1930, 2 pp. 47-66; Florez, Espana Sagrada, Madrid 1756, 13 pp 464 - 469; L. P. Fita, Sebastian Obispo de Arcaveca y de Orense, su Cronica y la del Rey Alfonso III, Boletin de La Real Academia de la Historia, Madrid 1907, 41 pp 324- 344.

(٣٥) راجع في ذلك نص المدونة: Ed. Florez, op cit, 13 p 436 no 8, p 452 no 58, p 453 no 61, p 457 no 74, pp 458-459 no 75, pp 460-461 no 80.

(٣٦) وعن نص رواية الكاتب عن ألفونسو انظر: Ed. Florez, op cit, 13 pp 453-458

(٣٧) راجع: Sanchez Albornoz, Una Cronica Asturiana Perdida, Buenos - Aires, 1945, 71p 106-107; Valdeavellano, Historia de Espana, Madrid 1952, 44p 1؛ جمال الدين الشيبان، التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوربي في عصر النهضة، دار الثقافة، بيروت، ص ٣٧.

(٣٨) انظر: Ed. Moreno, op cit, 100p 623 "Quod etiam ipsi Sarrazeni quosdam prodigiis vel austrorum signis interitum suum adpropinquare predicunt, et gotorum regnum restaurari per hunc nostrum principem dicunt. Etiam et multorum xpistianorum revelationibus atque ostensionibus hic princeps noster gloriosus dommus Adefonsus proximiori tempore in omni spanie predicetur regnaturus".

(٣٩) انظر في ذلك: Sanchez Albornoz, Fuentes de la Historia Espanola, 3rd ed, Madrid 1952, 1 pp 114- 115; Florez, Espana Sagrada, 14 pp 419- 425.

(٤٠) راجع في ذلك: سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ط ١، النهضة المصرية ١٩٥٨م، ص ١٨٥-١٨٨؛ نور الدين حاطوم، نفسه، ص ٢٠٥-٢٠٩، ٢٢٣-٢٣٤؛ محمد مرسى الشيخ، نفسه، ص ٢٣ وما بعدها.

(٤١) استقل حكام هذا الثغر عن الفرنجة خلال القرن التاسع الميلادي نفسه، ثم آلت إليهم مملكة أراجون المجاورة لهم غربا عن طريق المصاهرة في منتصف القرن الثاني عشر، وهي المملكة التي قادت حركة الاسترداد الإسبانية في القسم الشرقي من شبه جزيرة ايبيريا حتى اتحدت في عام ١٤٧٩ م مع مملكة قشتالة قائدة الحركة في القسم الغربي، حينما تزوجت ملكتها ايزابيلا من فرناندو الأراجوني، وباتحادهما تشكلت إسبانيا في العصر الحديث. انظر: Tapsell, op cit, pp 24, 40.

(٤٢) قارن في ذلك على سبيل المثال: ابن حيان، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق مشهور أنطونية، باريس ١٩٣٧م، ص ٩-٣٣، ٥٠-١٤٧؛ أخبار مجموعة، ص ١٥٠-١٥١؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ١٥٠-١٥١، ١٥٤-١٥٥؛ ابن عذاري، البيان، ٢ ص ١١٤، ١١٦-١١٩، ١٢١-١٤٩.

(٤٣) Ed. Moreno, op cit, 100 p 623 "Postquam affixeris eos clxx tempore reddet tibi retributionem quam tu dedisti ei. Spes nostra xpistus est quod completis proximiori tempore clxx annis inimicorum audacia ad nicilum redigatur et pax xpisti ecclesie sancte reddatur".

(٤٤) أقامت أشتوريس آنذاك كثيرا من القلاع والحصون على امتداد مجرى نهر دويرة الشمالي في مواجهة الثغور الأندلسية التي تقهقرت إلى الجنوب من نفس النهر. وعن هذه القلاع والحصون انظر: Chron Albeldense, ed. Florez, 13 p 454; Chron. Sampiri, op cit, 14 pp 438, 440, 446; Annales Toledanos, ed. Huici, 1p 340; Annales Huici, 1 p 60; Chron. Burgense, ed. Huici, 1p 32; Compostellani, ed Chron Cerratensis, ed. Huici, 1 p 92.

(٤٥) ابن الخطيب، تاريخ إسبانيا الإسلامية، تحقيق بروفنسال، ط٢، بيروت ١٩٥٦م، ص ٣٢٤.

(٤٦) فى ذلك راجع: Chron: T. Martinez de Escobar, . Isidoro Pacense, Ed. Chron: Revista Mensual de Filosofia, Literatura y Ciencias de Sevilla, Sevilla 1870, 2 pp 264, 267, 268-269, 319-320, 321.

(٤٧) راجت حول هذا القديس أسطورة إسبانية كانت سبب شهرته وقتذاك، ومؤداها أنه كأحد حواريي السيد المسيح فقد أنيط به التبشير في إسبانيا، ولما عاد إلى أورشليم توفى فيها، فحمل أتباعه جثمانه بحرا حتى انتهوا به إلى شاطئ إقليم جليقية بأقصى الطرف الشمالي الغربى من إسبانيا ودفنوه هناك فى سفح تلال بمنطقة ريفية مهجورة قرب مدينة إيريا فلافيا Iria Flavia، ومضت به القرون وغاص معها القبر حتى نسيه الناس إلى بدايات القرن التاسع الميلادى، حينما شاهد ثيودومير أسقف المدينة أضواء تتلألأ ليلا فى سماء المكان، فلما استقصى الأمر اكتشف المقبرة، فأبلغ الملك ألفونسو الثانى، الذى أمر ببناء كنيسة فوقها بعدما أبلغ النبأ للبابا الذى أذاعه بدوره على العالم المسيحى، وبمرور الوقت أصبح الضريح من أكبر المزارات المسيحية فى أوروبا بعامة، وانتظمت إليه وفود الحجاج التى أخذت تتزايد عاما بعد الآخر من كافة انحاء العالم المسيحى، وعن تفاصيل الأسطورة كاملة انظر: Huerta y Vega, Manuel de Anales del Reyno de Galicia, Santiago 1736, 2 pp 309 – 321

(٤٨) نشرت لأول مرة عام ١٨٥٠ م وتكرر نشرها بعد ذلك، وقد نشرها Joseph Bedier بنصها الفرنسى القديم وما يقابله فى الفرنسية الحديثة فى باريس عام ١٩٥٤ م، ثم ترجمها Dorothy L. Sayers إلى الإنجليزية ونشرها للمرة الأولى فى أربعة آلاف بيت واثنين بعنوان: The Song of Roland, Penguin Classics, England 1957 وتوالت طبعات هذه الترجمة حتى عام ١٩٧٨م.

(٤٩) انظر: Vita Karoli, op cit, 2p 443 (=الترجمة الإنجليزية، ص ٥٢؛ للترجمة العربية، ص ٣٨).

(٥٠) Ibid, 2p 451 (=الترجمة الانجليزية، ص ٧٠؛ الترجمة العربية، ص ١٠٤ - ١٠٧) فقد أشار إلى ملوك أيرلندة (اسكتلندة) بأنهم كانوا يخاطبون شارلمان فى رسائلهم إليه بلقب "سيدهم"، وعدوا أنفسهم "عبيده ورعاياه"، كما امتزجت الأوهام بالمغالطات فى روايته عن طبيعة علاقته بالرشيذ العباسى ومراميه وأهدافها، وأثار مسائل شائكة بالغة الخطورة وبعيدة عن الحقيقة، حينما أشار إلى أن الرشيد منح شارلمان حق امتلاك بيت المقدس؛ وهذه إشارة تكشف عن مطامع القوى الغربية فى المشرق الإسلامى عامة وفلسطين خاصة منذ تلك الحقبة المبكرة.

- (٥١) عن ذلك بتفصيل راجع على سبيل المثال: أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة عنان، ط ٢، القاهرة ١٩٩٦ م، ١ ص ١٤١، ١٢٨، ٦٤، ١٥٢ وما بعدها؛ عنان، دول الطوائف، ط ٢، القاهرة ١٩٨٨ م، ص ٤٠١-٤٠٢، ٤٠٤.
- (٥٢) حققت عدة مرات وأهمها تحقيق فلوريث H. Florez الذي نشرها بنصها اللاتيني في مجموعة: Espana Sagrada, Madrid 1789, 17 pp 262-323، ثم نشرها ميراندا ويسى M. Huici بنصها اللاتيني مصحوبا بترجمة قشتالية في كتابه: Las Crónicas Latinas de la Reconquista, Valencia 1913, 2 pp 8-169.
- (٥٣) في ذلك راجع: Aguado Bleye, Manual de Historia de Espana, Madrid 1975, 1 p 456; Cirot, Une Chronique Leonaise, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1911, 13 pp 133-156; Vazquez de Braga, Sobre la Cronica Najerense, Hispania 1941, 1 pp 108-109؛ وقد نشر كيروت G. Cirot هذه المدونة بعنوان: Une Chronique Leonaise Inedite, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1909, 11 no 3 pp 259-282; 1911, 13 no 4 pp 381-439.
- (٥٤) انظر: Ed. Florez, op cit, 17 no 7 pp 265 - 266 (= ed. Huici, op cit, 2 p 21) ونص عبارته: "Prescribere Carptim res gestas domini Aldefonsi ortodoxi imperatoris Hispaniae que vitam ejusdem".
- (٥٥) إذ يستشهد الراهب بها قائلا: "Ut in gestis ejusdem Habetur"، أى كما تذكر سيرته (سيرة شارلمان)، انظر: Ed. Florez, op cit, 17 p 272 (= ed Huici, op cit, 2 p 40).
- (٥٦) Vita Karoli, op cit, 2p443 (= الترجمة الإنجليزية، ص ٥٢؛ الترجمة العربية، ص ٣٨).
- (٥٧) عنها راجع مثلاً: Ballester, op cit, pp 37 - 39 والمراجع المعطاة.
- (٥٨) عن النص راجع: Vita Karoli, op cit, 2 pp 447 - 448 (= الترجمة الإنجليزية، ص ٦٤-٦٥؛ الترجمة العربية، ص ٧٣-٧٩) وانظر النص في الملاحق، وهناك ترجمات عربية عن ترجمات إنجليزية تحوى تفصيلات لا يتضمنها النص اللاتيني وإن لم تخرج في معناها عن مضمونه، ومثالا على ذلك انظر: محمد مرسى الشيخ، دولة الفرنجة، ص ١٥٦-١٥٧.
- (٥٩) عن النص راجع: Ed. Florez, op cit, 17 pp 271 - 272 (= ed. Huici, 2pp 40-43) وانظر النص في الملاحق.
- (٦٠) Vita Karoli, op cit, 2 p 446, 447 (= الترجمة الإنجليزية، ص ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤؛ الترجمة العربية، ص ٦٥، ٦٧، ٧٢، ٧٤).
- (٦١) Ibid, 2p 457 (= الترجمة الإنجليزية، ص ٨٠-٨١؛ الترجمة العربية، ص ١٤١).
- (٦٢) Annales Regni Francorum, op cit, p 48, 50; Einhardi Annales Fuldensis, pp 49, 51; Annales Mettenses, op cit, p 66.
- (٦٣) أخبار مجموعة، ص ١١٢؛ مجهول، فتح الأندلس، تحقيق خواكين جونتالث، الجزائر ١٨٨٩م، ص ٦٧-٦٨؛ العذرى، نصوص، ص ٢٥؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٤ ص ١٤٩؛ ابن الأثير، الكامل، ٥ ص ٢٤٦.
- (٦٤) أخبار مجموعة، ص ١١٣.

(٦٥) "neque ille toto regni sui tempore quicquam duxit antiquius, quam ut urbs Roma sua opera suoque labore vetere polleret auctoritate, et aeclesia sancti Petri per illum non solum tuta ac defensa, sed etiam suis opibus prae omnibus aeclesiis esset ornata atque ditata".

(Vita Karoli, op cit, 2 p 457; الترجمة الإنجليزية، ص ٨٠-٨١؛ الترجمة العربية، ص ١٤١).

(٦٦) قارن: Annales Regni Francorum, op cit, p 50; Einhardi Annales Fuldensis, op cit, p 51; Annales Mettenses, op cit, p67.

(٦٧) انظر أعلاه.

(٦٨) أخبار مجموعة، ص ١١٣.

(٦٩) الكامل، ص ٢٤٦.

(٧٠) انظر هامش رقم ٦٦ أعلاه.

(٧١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول - القسم الأول، ط ٣، القاهرة ١٩٨٨م، ص ١٧٦، محمد مرسى الشيخ، نفسه ص ١٤٩.

(٧٢) Vita Hludowici, op cit, 2 p 616.

(٧٣) Menendez Pidal, Historia de Espana, 6 p 282.

(٧٤) Chron Silensis, ed. Huici, op cit, 2 p 628. وانظر أيضاً: Vita Hludowici, op cit, 2 p 77; Codera, Expedicion a Pamplona de los Condes Francos Eblo y Aznar, Estudios Criticos de Historia arabe Espanola, Coleccion de Estudios Arabes, Zaragoza 1903, 7 pp 185 - 199; Barrau - Dihigo, Les Origines du Royaume de Navarre, Revue Hispanique, Paris 1900, 7 pp 215 - 217.

(٧٥) Vita Karoli, op cit, 2 p 451 no 16 (= الترجمة الإنجليزية، ص ٧٠؛ الترجمة العربية، ص ١٠٣) ونصها: "Adeo namque Hade fonsum, Gallitae atque Asturicae regem, sibi societate divinxit, ut his, cum ad eum vel litteras vel legatos metteret, non aliter se apud ilium quam proprium suum appellari iuberet".

(٧٦) عن ذلك راجع: ابن الخطيب، تاريخ، ٢ ص ٣٢٨ - ٣٢٩؛ نور الدين حاطوم، نفسه، ص ٤٣٠ - ٤٣١؛ عنان، دول الطوائف، ص ٣٧٦، ٣٧٨؛ Tapsell, op cit, pp 40, 84.

(٧٧) لازل موطنه وتاريخ مولده ووفاته في حكم المجهول، وما يعرف عنه أنه عاصر كل من الملك الفونسو السادس وابنته الملكة أوركا وابنها الفونسو السابع (١٠٦٥-١٠٥٧م)، وأنه تولى أسقفية سان سلفادور مرتين الأولى فيما بين عامي ١٠٩٨-١١٣٠م والثانية عامي ١١٤٢-١١٤٣م. وعنه بتفصيل راجع: Florez, op. cit, 14 p 458 sqq; Ballester, op cit, pp 35-36.

(٧٨) قارن: Barrau - Dihigo, Recherches, pp 96-97; Antonio Blazquez, Pelayo de Oviedo ... Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos, Madrid 1908, 18 pp 187 - 202; Sanchez Albornoz, Origenes, 3 pp 803-804, 808, 811, 814-815.

(٧٩) نشر ريسكو Risco قرارات هذا المجمع في مجموعة: Espana Sagrada, Madrid 1789, 37 pp 295-300.

(٨٠) نشرها فلوريث Florez وعن ذلك انظر هامش رقم ٣٣؛ ويميز فيها إضافات بلابو ككل بالصفحات ٤٤٠-٤٤٦ أرقام ٦-١٣، أما الإضافات المتعلقة بشارلمان فتقع فى صفحتى ٤٤٣ (رقم ١٠) و ٤٤٤ (رقم ١١).

(٨١) "Omneque Chron. Albeldense,ed.Florez,op cit ,13p 452 no 58 ونصها: Gothorum ordinem,sicuti Toletum fuerat, tam in Ecclesia, quam Palatio in oveto cuncta statuit".

(٨٢) "Necnon piissimi Francorum Principes ونصها: Risco,op cit,37p 295 no1. Caroli consilio ,quem ecquidem missa legatione"

(٨٣) Ed.Risco, op cit,37 pp 297-298 no6;Ed Florez,op cit,14p 444no11. ونصها عندهما: "Asturiarum enim patria tanto terrarum spatio est distenta, ut non solum viginti Episcopis in ea singulae mansiones possint attribui,verum etiam (sicut praedictus magnus Rex Carolus per Theodulphum Episcopum nobis significavit) triginta praesulibus ad vitae subsidia valeant impendi singula loca".

(٨٤) انظر: Ed. Florez,op cit, 14p 443 no 10 ونص روايته: " Praedictus rex una cum uxore et filiis et cum praedictis episcopis,sive et comitibus, et potestatibus, domini Papae venerunt Ovetum,ad celebrandum concilium cum auctoritate Joannis, et cum consilio Caroli Principis Magni".

